تحديات الثقافة العربية

د. نبيل راغب

القراءة للجميع

مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(أعمال خاصة)

تحديات الثقافة العربية

د. نبيل راغب

الغلاف

الإشراف الفني:

للفنان محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

تحديات الثقافة العربية

مقدمة



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل - ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضىء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لألىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د . سمير سرحان

مقـــــدمة

ان أية دراسة لموقف العرب من تحديات المستقبل تؤكد أن القومية العربية ليست ظاهرة استاتيكية ثابتة نستكين اليها ، ونستند الى جدارها ، ونحتمى فى ظله فى حين نتابع مجريات الأمور فى عالمنا المعاصر البعيد تماما عن الثوابت ، والذى تحمل متغيراته فى كل دقيقة تطورا جديدا يلهث الجميع وراء استكشاف أبعاده،ان القومية العربية الحقيقية مفهوم دناميكى بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ودلالات ، فنحن لا نستطيع أن نعزل أمتنا العربية عن مجريات الأمور فى عالمنا المعاصر ، الذى أصبح عالما متغيرا جدا بفعل ثورة المواصلات ، ومن ثم أصبحت العلاقة العضوية القائمة على التأثير والتأثر ، والأخذ والعطاء ، هى السمة المميزة للعلاقات بين مختلف الأمم والدول •

لذلك أصبح من الضرورى بالنسبة للأمة العربية أن تتصرف وتسلك بناء على استراتيجية حضارية تطبيقية نابعة من مسئوليتها تجاه قوميتها حتى لا تضل الطريق وسط هذه الغابات الكثيفة والأدغال المتشعبة للعلاقات الدولية فى عالم اليوم ، فقد أصبحت عمليات الشد والجذب على أشدها ، وخاصة بعد ما يسمى بالنظام العالمى الجديد وهى تحولات ينتج عنها الكثير من المتغيرات

الديناميكية ، واذا ركنت الأمة العربية الى النظرة الاستاتيكية الثابتة تجاه قوميتها ، فان قوميتها ستصبح مجرد نظرية تنتمى الى مجال التاريخ أكثر من انتمائها الى عالم الواقع،وفى الوقت نفسه تفقد الأمة العربية قدرتها على مواكبة عصرها ٠

ولا يعنى هذا وضع القومية العربية تحت رحمة متغيرات العصر ، بحيث يمكن أن تفقد خصائصها الجوهرية مع انجرافها فى تيارات عالمنا المتعارضة ٠ فلا شك أن كل نظرية فى القومية لها جانب من الثوابت وجانب آخر من المتغيرات ، وكلنا نعرف الثوابت فى قوميتنا العربية:اللغة والدين والاقليم والتاريخ المشترك والثقافة المشتركة والمصلحة الاقتصادية ، هذا طبعا بالاضافة الى العوامل المعنوية التى تتمثل فى الوحدة الروحية والمشيئة أو ارادة العيش المشترك ، والتجانس الشعورى واللاشعورى على حد سواء ، وطالما تغنينا بهذه الثوابت ، لكننا لم نبذل الجهد الكافى فى اخراجها الى حيز التنفيذ العملى الشامل ، ومع ذلك ظلت موجودة وملموسة ، وهذا أكبر دليل على أصالة القومية العربية التى لم تجد من يرعاها الرعاية اللازمة من أبنائها ، ومع ذلك أصرت على اثبات وجودها ٠ هذا فى الوقت الذى نجد فيه الشعوب الأخرى تسعى جاهدة للترسيخ العملى لدعائم قوميتها ، أو لابتكار قوميات لم تكن موجودة من قبل لمجرد بروز ملامحها الأولية على سطح تاريخها المعاصر ٠

أما جانب المتغيرات فى القومية العربية فيرتبط أساسا بالمنهج التطبيقى ، اذ أن الثوابت تنهض على النظرية الشاملة ، واذا كنا قد قصرنا فى البلورة العلمية لهذه الثوابت ، فان تقصيرنا فى مواكبة المتغيرات يبلغ حدا خطيرا لا يمكن السكوت عليه ٠ وخاصة أن الوقت يمر ضد صالحنا القومى العام ، ولعل هذا يرجع الى أننا لا نحاول القيام بمهمة التنبؤ العلمى بما ستكون عليه الأمة العربية فى المستقبل القريب ولا نقول البعيد ٠

لذلك يجب أن نعترف أن نظرتنا الى مستقبل الأمة العربية نظرة قاصرة غائمة في الوقت الذي أصبح فيه المستقبل علما قائما بذاته تدرســه بلاد العــالم المتحضر لكي تضــع استراتيجيتها على أساس خال من المفاجآت التي قد تعوق المسيرة الحضارية ، لكننا في العالم العربي نقع أسرى اللحظة الراهنة التي يمكن أن تستغرقنا تماما ، ونعجز أحيانا عن تخطيها وتجاوزها . في مثل هذه اللحظة نتبادل الاتهامات ونلقي باللوم على بعضنا بعضا بدلا من التسلح بالمنهج العلمي الموضوعي الذي يمنحنا القدرة على النقد الذاتي دون حرج أو حساسية .

ان مفهومنا للقومية العربية - على مستوى المتغيرات - لابد أن يملك من الديناميكية ما يمكنه من مواكبة العصر الذي نعيشه ، فالحديث بلغة العصر لا يعني التخلي عن خصائص قوميتنا الجوهرية الثابتة ، بل على العكس من ذلك تماما ، اذ أن رســـوخ قوميتنا واستمرارها كانا نتيجة مباشرة لقدرتها على مواكبة العصور ونقاط التحول التي مرت بها . ولا شك فان المرحلة التي نحياها الآن هي مرحلة تحول مصيري جذري يضع القومية العربية في مواجهة اختيار من أصعب الاختبارات التي اجتازتها بطول تاريخها .

ان المتغيرات العالمية أصبحت أسرع وأكثر تعقيدا من ذي قبل . والأمة العربية بموقعها في قلب الشرق الأوسط - القلب الجغرافي والاستراتيجي للعالم كله - وبثرواتها الطبيعية والبشرية الهائلة ، لا يمكن أن تقف بمعزل عن هذه المتغيرات التي تجتاح شواطئها من جميع الجهات . واذا لم تتسلح بالوعي القومي الأصيل وبالمنهج العلمي الموضوعي ، فانها ستجد نفسها مثل ريشة في مهب الرياح . وعندئذ سيتحول موقعهـا الجغرافي والاســتراتيجي وثرواتهـا الطبيعية والبشرية الى وبال عليها بدلا من أن تكون هذه العوامل الايجابية المثمرة خيرا وبركة لها .

هنا يبرز الدور الريادى للمثقفين العرب فى جميع أنحاء العالم العربى • ذلك أن نشر الوعى القومى الناضج ينهض على أكتافهم أولا وأخيرا • أما ما يسمى بالاختلافات الايديولوجية بين المثقفين والمفكرين العرب ، فيجب أن ينصهر فى بوتقة الايديولوجية الشاملة للقومية العربية • فنحن أمة ذات حضارة رفيعة اعترف بها العالم أجمع ، ولا توجد حضارة متكاملة فى التاريخ لم تقم على أساس متين من أيديولوجية شاملة • لذلك فان القومية العربية تجمع دائما بين مفهومى الأصالة والمعاصرة ، فهى لا تتخلى عن سماتها وخصائصها الجوهرية ، كما أنها تسعى لمواكبة عصرها الراهن • لكن هذه المهمة لن تتم على الاطلاق اذا لم يقم المثقفون والمفكرون العرب بدورهم الريادى فى هذا المجال خير قيام •

واصرارنا على اثبات وجود بوتقة الايديولوجية الشاملة للقومية العربية يحتم بدوره عدم الانقياد الأعمى وراء التيارات الفكرية والعقائد الواردة من خارج الأمة العربية • ذلك أن الفكر – بصفة عامة – نبات يرتبط بالتربة التى استمد منها جذوره ، ومن الطبيعى أن يحمل خصائصها • لذلك كانت قوميتنا نابعة من تربة وطننا العربى العريق •

ولعل أكبر خطأ ارتكبناه – كعرب – فى حق القومية العربية أننا ركزنا على الجانب العاطفى الذاتى لها أكثر من تركيزنا على المفهوم العلمى والموضوعى لها برغم وجودها كحقيقة موضوعية ملموسة فى حياة الأمة العربية • ونحن لا ننكر أن العاطفة الوطنية – عندما تتحول الى عاطفة قومية – يمكن أن تتحول بالتالى الى طاقة متدفقة تفعل الأعاجيب فى حياة الأمم • لكن العاطفة القومية لا يمكن أن تكون مادة خاما أو فورات تلقائية ، ذلك أنه من الصعب التنبؤ بالمسار الذى تسلكه تلك الفورات أو الطفرات العاطفية ، وهى يمكن

أن تكون سلبية بنفس القدر الذى يمكن أن تكون به ايجابية. فهى سلاح ذو حدين فعال للغاية فى مجال البناء والتعمير كما هو فعال فى عمليات الانقســـام والتدمير . ومما يدعو للأسف أن العرب إشتهروا فى عالمنا المعاصر بأن عود ثقاب يمكن أن يؤجج عاطفتهم التى سرعان ما تخبو بفعل بضع قطرات من ماء الواقع الراسخ .

وبرغم كل هذا الاحباط فان القومية العربية أثبتت أنها أقوى القوميات رسوخا فى عالمنا المعاصر . فان الدول التى تنضوى تحت قوميات أخرى نجدها تسعى سعيا حثيثا لترسيخ جذور قوميتها من خلال الدراسة الموضوعية الشاملة التى تستوعب العوامل الايجابية من وحدة اللغة أو العقيدة أو الأرض أو التاريخ أو الكفاح ... الخ . وحتى فى حالة غياب بعض هذه العناصر ، أو فى حالة حداثة الأمة تاريخيا ـ كما نجد فى الولايات المتحدة الأمريكية مثلا ـ فان نظم التعليم ووسائل الثقافة والاعلام والترفيه تتجه جميعا نحو تأصيل مفهوم القومية الجديدة فى أذهان المواطنين ووجدانهم . وقد نجح الأمريكيون الى حد كبير فى هذا المضمار ، ولولا جهودهم العلمية والعملية المستمرة لما شعر الأمريكى بأنه ينتمى الى ما يسمى بالقومية الأمريكية المستقلة المتميزة الملامح وخاصة أن الأمريكيين يشكلون مزيجا من معظم جنسيات العالم التى لم تنصهر بعد فى بوتقة القومية الجديدة انصهارا تاما نظرا لحداثة تاريخهـا الذى لا يزيد عن القرنين من الزمان .

وقبل أن يهتم الأمريكيون بالجانب العاطفى فى قوميتهم ، ركزوا أساسا على الجانب الموضوعى العملى وخاصة فيما يتصـــل بالنظام الاقتصادى القومى الذى يربط الجميع بآلة الانتاج الضخم على جميع المستويات . ولسنا هنا بصدد تقييم سلبيات أو ايجابيات هذا البناء الرأسمالى العملاق ، اذ أن أهم ما يلفت انتباهنا الدور

الخيوى الذى يلعبه فى تشكيل ملامح القومية . بل ان الأمريكيين لا يجدون أى انتهاك للديمقراطيـة فى عملية توجيه نظم التعليم ووسائل الثقافة والتربية والاعلام والترفيه من أجل ترسيخ القومية الأمريكية . ويجب ألا نصدق ما يقال عن الحرية المطلقة التى تتمتع بها وسائل الاعلام الأمريكى ، اذ أن هناك استراتيجية قومية تتبعها هذه الوسائل فى التأثير على عقل الجماهير لكى تفكر بأسلوب معين . بل نستطيع القول بأن وسائل الاعلام أصبحت تقوم بعملية التفكير نيابة عن المواطنين الذين تصنع لهم الأفكار والاتجاهات وتقدم لهم بأسلوب جاهز يجعلهم يظنون أنها من بنات أفكارهم . واذا كانت هناك حرية لوسائل الاعلام الأمريكى ، فهى حرية الحصـول على أكبر عائد ممكن من الأرباح التجارية المرتبطة بالاعلان وغير ذلك من وسائل الكسب الرأسمالى الضخم .

واستشهادنا هنا بمحاولات الولايات المتحدة لتأصيل مفهوم القومية الجديدة فى أرضها ، جاء على سبيل التدليل والمثال لتوضيح أن القومية ليست ظاهرة طبيعية شأنهـا فى ذلك شـأن الجبال والمحيطات والصحارى والغابات ، بل هى ظاهرة تلعب فيها ارادة الانسان دورا أساسا وريادیا . وكلما كانت هذه الظاهرة أصيلة وراسخة ، فان مهمة الانسان تصبح سهلة وميسرة وحاسمة وسريعة المفعول الى حد كبير . وهذا ينطبق تماما على مفهوم القومية العربية التى لم نعطها بعد حقها من الدراسة النظرية والتطبيق العملى فى شتى مجالات حياتنا ، وفى جميع أرجاء الوطن العربى .

ونحن لا ننكر بهذا الدراسات الجادة التى قام بها رواد الفكر العربى القومى بحيث حللوا ظاهرة القومية العربية على أساس علمى وعصرى . ولا شك أن جهودهم الفكرية والعلمية كانت كفيلة بايجاد منهج علمى يمكن القومية العربية من شق طريقها فى عالمنا المعاصر ،

واثبات وجودها على المستوى العملى التطبيقى • ولعل المأخذ الوحيد الذى يمكن أن يؤخذ على هذه الدراســـات ان معظمها دار حـول ما كان ، ولم يركز الأضواء على ما يجب أن يكون • صحيح ان ماضى القومية العربية يشكل القاعدة التى يمكن أن تنطلق منها الى آفاق العصر ، ولذلك فان دراسه هذا الماضى وتحليله ضرورة قومية ملحة لتدعيم ايجابياته والتخلص من سلبياته • لكن المستقبل لا يقل بأية حال من الأحوال فى أهميته والحاحه عن الماضى ، بل ان أهميته تتضاعف لأن المستقبل هو آفاق العصر ، وبدون دراسته لا يمكن تحديد مكاننا بين هذه الآفاق •

ويجب أن نتذكر أننا ـ كعرب مازلنا نجد راحة كبيرة فى مجال النظريات والأقوال ، فهو مجال سهل أقصى ما يكلفنا به اعمال التفكير والقيام بمقارنة قوميتنا بالقوميـات الاخرى • أما ميدان التطبيقات والأعمال فان أول عقبة تقابلنـا فيه كفيلة بأن نعود القهقرى الى مجال النظريات والأقوال • لذلك ظلت آراء رواد الفكر العربى القومى واتجاهاتهم الفكرية حبيسة الكتب والأبحاث التى وردت فيها • ومن ثم ظل الواقع العربى على ما عليه من التناقضات والصراعات التى مزقت نسيجه ، وأفقدته تناغمه ، وجعلت عالمنا المعـــاصر ينكر وجود ما يسمى بالقومية العربية ، ذلك أنه عالم لا يؤمن الا بالنتائج الايجابية المادية الملموســـة • أما النظريات والمثاليات ـ فى نظره ـ فلا وجود لها اذا لم تخرج الى حيز التنفيذ العملى • كما أنه عالم يرى فى العاطفة الساخنة رفاهية لا يقدر عليها اذا ما جاءت ساعة الحسم ، لأن ساعة الحسم تقتضى حسابات علمية وعملية دقيقة للغاية ، بحيث يمكن تحقيق الهدف الاستراتيجى بأقصر الطرق دون تضييع للوقت ، ولا تشتيت للطـــاقة والجهد والفكر • وهذا ما يحتاجه وطننا العربى فى هذه المرحلة الحاسمة الخطيرة التى يمر بها الآن حتى يستطيع مواجهة تحديات المستقبل •

المهندسين فى ١٩٩٨/٥/١٥

د• نبيـل راغب

الفصل الأول

نحــو احياء للحضارة العربيــة

على الرغم من كل النكسات التى مرت بها الأمة العربية منذ القرن الثالث عشر الميلادى وحتى الآن ، نتيجــة لأطمــــاع القوى العظمى فى هذه المنطقة الاستراتيجية على مر تلك العصـــــور ، فان شعلة الحضارة العربية القديمة لم تنطفىء تمــاما كما ظن بعض المؤرخين . ولذلك يعتقـــد المفكر الروسى نيقولاى دانيلفسكى فى سلسلة مقالات نشرها فى عام ١٨٦٩ بعنوان « نظرة الى العلاقات بين العالم السلافى والعالم الجرمانى » أنه لاتوجد حضارة واحدة فقط فى العالم المعاصر ، بل هى نسيج من حضارات متعددة سابقة أو مندثرة ، ولكن المسألة تكمن فى مراكز الثقل التى تتبلور فيها الحضارات ، فتبدو هذه المراكز وكأنها الحضارة بعينهــــا ، بينما هناك من مناطق الظل ما يعتبر من العالم المتخلف الذى لم يعرف معنى للحضارة بعد ، فى حين أن الواقع الفعلى يؤكد أن الحضارة خابية فى هذه المناطق وليست مندثرة ، ويمكن أن تبعث مرة أخرى لو تجمعت العوامل المساعدة لذلك .

فالحضارة التى تولد وتزدهر يمكن أن تخبو وتتوارى لكنها لايمكن أن تموت وتندثر والحضارة الأوروبية أو الغربيــة تستمد

جذورها فى الأساس من حضارات سابقة متوارية فى الظل ، وعلى رأسها الحضارة العربية ، وان كانت قد أخذت أسلوبا آخر • وعلى هذا فالحضارة الأوروبية أو الغربية ليست الحضارة العالمية الوحيدة كما قد يتبادر الى الذهن لأول مرة • بل ليست أيضا الحضارة الديناميكية أو الحضارة التقدمية الوحيدة • انها ليست سوى حضارة من عدة حضارات أخرى كثيرة تشمل فقط منطقة الحضارة الجرمانية الرومانية ، وقد ولدت معظم الحضارات الأخرى ، بما فيها الحضارة الهلينية خارج ما تعارف عليه بأنه أوروبا •

بل ان الحضارة الغربية ارتبطت فى أوج مجدها بالاستعمار الذى يعد العدو الأول لجوهر الحضارة الانسانية • ولذلك فان الغرور الذى أصاب الحضارة الأوروبية ربط عجلتها بالتعصب الأعمى ، والعنصرية البغيضة ، والروح العدوانية التى ترى أن نشر الحضارة لايتأتى الا عن طريق اذلال الشعوب الأخرى واستعبادها وقد قادت هذا الاتجاه الحضارى المزيف انجلترا وفرنسا وهولندا والبرتغال • وهذا الزيف نبع من أن الاستعمار قد لبس رداء الحضارة حتى يبدو شكله مقبولا ، وتحت هذا القناع شهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر أفظع وأبشع أنواع الاستبداد والاستعمار ، وامتصاص دماء معظم شعوب آسيا وأفريقيا • وهذا لايمكن أن يمت لمفهوم الحضارة الانسانية من قريب أو بعيد •

فاذا استوعب العرب هذه الحقائق التاريخية ، فانه يمكنهم التخلص من كل عقد النقص التى ترسبت فى نفوسهم تجاه الحضارة الغربية المعاصرة • وخطورة هذه العقد تكمن فى أنها تصيب الأمة العربية بالشلل كلما فكرت فى القيام بانجاز حضارى كبير ، وتعوق حركتها كلما حاولت الانطلاق الى آفاق العصر • وخاصة أن الحضارة الغربية المعاصرة كانت نتيجة مباشرة لحضارتنا

العربية التى جاءت قبلها مباشرة فى سلسلة الحضارات الانسانية التى تبدأ بالحضارة المصرية ، فالصينية ، فالآشورية ـ البابلية ، فالفينيقية ـ الكلدانية أو السامية القديمة ، فالهندية ، فالفارسية ، فاليونانية ، فالرومانية ، فالعربية أو السامية الجديدة ، وأخيرا الجرمانية ـ الرومانية أو الأوروبية أما فى نصف الكرة الغربى فهناك حضارة المكسيك وبيرو وقد واجهت كلتاهما انهيارا عنيفا بغير أن تكملا مجرى حياتهما .

فالحضارة العربية ليست حضارة مندثرة أو حتى بعيدة وموغلة فى القدم ، بل انها لاتزال تثبت وجودها من حين لآخر فى داخل الحضارة العالمية المعاصرة ذاتها ، بالاضافة الى مواجهة التحديات العديدة التى كانت تهدف الى قتل روحها ، وهذا ينطبق على نظرية المؤرخ المعاصر ارنولد توينبى فى مولد الحضارات ، وهى النظرية التى هاجمها كثير من المؤرخين العنصريين المغرضين . يرى توينبى أن مولد الحضارة لايرجع الى تفوق جنس بشرى معين ، أو الى عوامل مساعدة وظروف ملائمة بشكل غير عادى ، بل يعزى الى ظروف قاسية بشكل غير عادى . وهذه الظروف تمثل تحديا مصيريا لمجتمع ما بحيث يتحتم عليه الاختيار بين البقاء أو الفناء ، بين الوجود أو العدم ولذلك يتحفز هذا المجتمع ويحشد كل طاقاته لمواجهة هذه التحديات وخوض معركة البقاء الحضارى ، والمحافظة على كيانه الانسانى . فاذا ما نجح فى مواجهة التحديات ، ورجحت كفتها فى صالحه ، فان هذا يمكن أن يؤدى الى خلق الحافز القوى والمستمر لزيادة قدرته الخلاقة الى حد كبير ، وتنمية طاقاته الروحية والمادية بحيث يتبع هذا ما نطلق عليه « مولد الحضارة » .

وعلى الرغم من ضرورة وجود نوع من الموهبة الخلاقة والقدرة على الابتكار واستغلال الظروف المواتية ، بل وخلقها ، بالنسبة للدور الذى يلعبه المجتمع الذى يواجه تحديا مصيريا مما يساعد على

انتصاره ، فان توينبي لايقبل التفسير العنصري الذي ينسب مولد احدى الحضارات الى التفوق الفطري أو عبقرية جنس أو شعب معين ، انما ينسبه ، الى حد ما ، الى مجموعة من الظروف التي تعتبر بمثابة التحدي ، كما ينسبه ، من ناحية أخرى ، الى خصائص المجتمع الذاتية التي تمد جذورها في تاريخه بحيث تصل الى مصادر حضارته الأولى • فاذا توافر هذان العنصران الحضاريان : التحدي المصيري والأصالة الحضارية فانه يحدث ما يشبه المعجزة في التاريخ • ومن الواضح أن الأمة العربية تملك هذين العنصرين ولم يتبق سوى أن نستخدمهما في الزمان والمكان المناسبين •

وعندما تعقد الأمة العربية العزم على خوض هذه المعركة الحضارية بكل أسلحتها • فانها لن تتحرك في فراغ ، لأنها سوف تستلهم أصولها الأولى مع استيعابها لمنجزات العصر • فقد بلغت الحضارة العربية أوجها في الفترة ما بين مستهل القرن العاشر الميلادي والقرن الثالث عشر • وتلك الفترة أطلق عليها المؤرخون في الشرق والغرب عصر العرب الزاهي ، وقالوا ان العرب كانوا وحدهم حملة مشاعل الحضارة في الدنيا كلها • فقد أقبل علماء العرب بدافع من الاستنارة السائدة في ربوعهم على احياء تراث الاغريق الحضاري ، فكان العرب هم الأمناء عليه ، وباعثيه والمضيفين اليه والمجددين فيه • وكانت الامبراطورية العربية قائمة على الحق والعدل والحرية والايمان بالانسان • من أجل هذا حمل علماء العرب مشعل الحضارة وأناروا به طريق التقدم فترجموا كتب أرسطو وسقراط وأبو قراط ، فكان حنين بن اسحاق هو باعث فلسفة أرسطو وحكمته ، وترجم ابن الهيثم نظريات اقليدس وأرشميدس الى العربية •

وطالما أن الأمة العربية تملك مقومات الانطلاق الحضاري ، فلابد من وضع استراتيجية حضارية شاملة تقيم الدولة العصرية

والمجتمع الحديث حتى يستطيع الشعب المصـــرى ، فى مختلف بقاعه ، أن يحقق من خلالهما ذاته ، وينمى طاقاته الخلاقة • وأى تردد أو تقاعس فى هذه المرحلة المصيرية لابد أن يعود بالوبال على الانسان العربى فى كل بقاع الوطن العربى •

وأية نظرية للحضارة العربيـــة لابد أن تضع فى اعتبارها ان الانسان العربى هو فى النهاية هدف هذا التقدم ، وهو فى البداية وسيلة هذا التقدم • ان الانسان العـــربى ، اذا ما استغلت كل امكاناته وطاقاته ، هو الضمان لاجتياز مخاطر هذه المرحلة فلابد أن يأخذ بأحدث معطيات العصر فى شتى المجالات ، دون ما خشية من أن يفقد خلال هذه الرحلة هويته ، أو ينقطع عن أصالتـــــه ، أو ينسى الفضائل التى اعتز بها الشعب العربى دائما • انه شعب فى أعماقه قيمة حضارة تعترف الانسانية كلها بفضلهـــا عليها • فمنـــذ أن بزغت شمس الحضارة العربية وهى تنهض به وتكبر ، تنطلق وتنقطع ، تتغير وتتجدد ، ولكن الشعب العربى كان يعرف دائما كيف يواجه هذه التحديات ويخرج من هذه الامتحانات كلها محتفظا بخصائصه الأصلية ، وفطرته الصافية السليمة •

وكانت من أهم خصائص الشعب العربى على مر التاريخ ، أنه كان دائما شعبا صانعا للحضارة ، بانيا للعمران، •ولم تكن المهارات التى قدمها للدنيا أبدا من مهارات الغزو والتدمير ، بل من مهارات البناء والتعمير • ولذلك كانت وحدة الأمة العربية وحدة حضارية فى المقام الأول ، وليست مجرد حدود جغرافية متلاصقة أو لهجات متعددة للغة واحـــدة ، فكل هذه عناصر متفاعلة فى الوحـــدة الحضارية التى تعد الهدف الكبير والوحيـد من أجـل الانطلاق الى الصفوف الأولى فى مسيرة العصر الحضارية •

فلم تعترف الحضارة العربية في القديم بالفواصل الجغرافية ، بل استوعبت كل الانجازات الحضارية التى سبقتها ثم بدأت تضيف اليها اضافات خلاقة لايزال عالمنا المعاصر يعترف بقيمتها وفاعليتها · ولم تقف الدعاوى الشعوبية فى وجه هذا الزحف الحضارى الباهر ، بل كان هدف الجميع العمل من أجل عالم أفضل للانسان العربى · ولازالت هذه القيمة التى رسختها هذه الحضارة العريقة كامنة فى نفوس وضمائر أحفادها فى ثقافتهم وسلوكهم وعلاقاتهم ·

ان أى احياء للحضارة العربية موضوع كبير ومتفرع ومتشعب ، وفى حاجة الى تعاون مفكرى الأمة العربية بصرف النظر عن انتماءاتهم السياسية التى قد تبدو متعارضة · فالهدف واحد والمصير واحد ، وأى تلاعب أو تردد أو تقاعس أو صراع من شأنه أن يزيد من تفتت الأمة العربية فى عالم أصبح لايعترف الا بالكيانات الكبيرة ذات الثقل الحضارى ·

صياغة الوجدان العربى : الواقع والمتطلبات

لاشك أن قضية صياغة الوجدان العربى تعد من أخطر القضايا الاستراتيجية التى تحتاج الى دراسة مستفيضة سواء على المستوى الفكرى النظرى أو المستوى التطبيقى العملى ، لأن هذا الوجدان هو بمثابة البوصلة التى لابد أن ترشد السفينة العربية وسط عالم أصبح زاخرا بالعواصف والأنواء والأعاصير التى غرقت فيها سفن كبيرة وعملاقة كالاتحاد السوفييتى ٠

واذا ما ألقينا الضوء على واقع الوجدان العربى سنجد أنه يعانى من ضغوط ورواسب تعوق من انطلاقه فكرا وعملا صوب آفاق المستقبل ٠ ومن يرجع الى المؤلفات التى تخرجها المطابع العربية ، ويفحصها فحصا موضوعيا ونقديا وتحليليا دقيقا ، سيدرك أن معظمها يستند الى اجترار الماضى والاشادة بعظمة الأجداد ، وكأن مجرد الحديث عن عظمة الأجداد سينطلق بنا الى مصاف الدول المتقدمة وسيؤدى بالتالى الى الزام مفكرى عالمنا المعاصر بالتسليم بقدرة فكرنا العربى المعاصر على خوض محيط المتغيرات العالمية التى لا تهدأ ٠

وهناك أيضا مؤلفات أخرى تسعى الى تغييب العقل العربى وادخاله فى متاهات جانبية حتى يلقى به بعيدا عن الطريق الذى تشقه الحضارة المعاصرة • مثل تلك المؤلفات التى تهتم بعالم الجن والأرواح والأشـــباح والذين هبطوا على الأرض أو صـــعدوا الى السماء ، وكأننا انتهينا من كل مشاكل الانسان العربى وقضاياه المصيرية ، ولم يتبق لدينا سوى حل معضلات الجن والأشباح •

يحدث هذا فى وقت تنطلق فيه الصواريخ وسفن الفضاء الى الكواكب الأخرى ، ويتحول فيه العـــالم كله الى قرية صغيرة يملك زمامها أقوياء أغنياء ليست فى قلوبهم ذرة رحمة أو شفقة على فقرائها وضعفائها • ولذلك فان المتطلبات الكفيلة بتغيير هذا الواقع متطلبات كثيرة ومتعددة ومتشابكة ، وتحتاج الى استراتيجية حضارية شاملة سواء على المدى القريب أو البعيد • فليس من المعقول أو المقبول أن نطالب عالم اليوم بافساح مكانة مرموقة لنا ، فى حين لم نستطع بعد أن نجعل لفكرنا العربى هوية متبلورة وطريقا واضحا محددا يتمثل فى انجازات حضارية يعترف بها الجميع •

وواقع الوجدان العربى زاخـــر بالايجابيـــات التى يمكن أن نستمد منها قوة دفع متجددة اذا ما أحسنا استخدامها وتوظيفها • فاذا رجعنا مثلا الى تراثنا الفكرى الأصيل ، فسنجد مفكرين من العرب تركوا بصماتهم الحضارية والفكرية واضحة على مسيرة الفكر الانسانى كله • يكفى أن نذكر على سبيل المثال أبا العلاء المعرى فى مجال الشعر ، وابن رشد فى مجال الفلسفة ، وابن خلدون فى مجال التاريخ والاجتماع ، فان هؤلاء وغيرهم بما تـركوه لنـــا من فكر ، احتلوا مكانة مرموقة فى تاريخ الفكر العالمى •

لكن واقع الوجدان العربى الآن يختلف عن واقعـه فى الماضى البعيد اختلافا بينا • فليس لدينا فكر يمكن أن يقال عنه انه يؤثر

فى مجريات الفكر العالمى وبالتالى يفسح لنا مكانا أو مكانه فى توجيه دفة الامور فى عالمنا المعاصر ، ذلك أن الفكر بطبيعته هو الوجــه النظرى للانجـــاز المادى الملموس ، ويتبادل معــه عمليتى التأثير والتأثر ، وكلما كان الانجاز العملى متهافتا ، تعثر الفكر بدوره ودخل فى حلقات مفرغة • والعكس صحيح أيضا لأن الفكر المتعثر يؤدى الى تشتيت الطاقة الانتاجية وهكذا الى ما لا نهاية •

من هنا تأتى ضرورة المتطلبــات التى لابد أن نسعى حثيثـــا لتحقيقها من أجل صياغة الوجدان العربى بمنهج يخلصه من كل معوقاته الحضارية • ولذلك لابد من تهيئة المناخ الفكرى الذى يبلور الجوانب الايجابية فى شخصيتنا الحضـــارية الأصيلة وفى الوقت نفسه يتواصل ويتفاعل مع الفكر الانسانى العالمى بلا حساســـيات أو عقد نقص أو عظمة • هذا المناخ يتمثل فى حركة التنوير العقلى ، مثل تلك التى أدت الى تقدم أوروبا فى عصر النهضـــة الذى لاتزال تقطف ثماره حتى الآن •

وكانت أوروبا قد تقدمت حضاريا ابتداء من عصر النهضـــة لأنها استطاعت أن تنظر الى ماضيها نظرة تحليلية نقدية ، تأخذ منه الايجابيات لتدعمها وتطورها لتجدد توظيفها والاســـتفادة منها ، وتستبعد منــه السلبيـــات التى لاتتفق مع المنهج العلمى الحديث والمنطق العقلى المتسق •

ونحن بدورنا فى ســـعينا لصياغة الوجدان العربى مطالبون بالقيام بعملية حضارية مشابهة ، اذ لابد من تنقية التراث من كل الشوائب التى علقت به ، خاصة فى عصور التدهور والظلام التى تحجرت فيها الأفكار ، وسدت فيها السبل ، وسادت فيها الخرافات• فلا يعقل أن يستفيد علماء أوروبا بانجازات علمائنا الكبار فى الماضى مثل ابن الهيثم وابن سينا وجابر بن حيان والبيرونى ، ويترجموا

أكثر كتبهم لأنها تنهض على المنهج العلمى والمنطق العقلى ، فى حين نكتفى نحن بالفخر والمباهاة بهم أمام الآخرين · أى أن تراثنا زاخر بالآراء والقيم والاتجاهات المضيئة المشرقة التى يجب على واقعنا المعاصر أن يكون امتدادا حيا لها على مستوى العصر · أما التعلق بذيول الخرافات والخزعبلات فلابد أن يشتت الوجدان العربى ويفقده الاتجاه الصحيح نحو آفاق الحضارة ·

لكن اذا كنا ندعو الى الانفتاح على ثقافة الغرب التى صنعت وجدانه منذ عصر النهضة ، وتجاوز الماضى الى متطلبات الحاضر والمستقبل ، فان ذلك لايعنى أن تصورنا لصورة الوجدان العربى فى المستقبل يستمد كل ملامحه من ثقافة الغرب ، ذلك أن رفض التراث كلية هو ما يسمى بالثورة من الخارج · وهى ثورة دخيلة على الوجدان العربى ولاتصلح أن تكون دعامة لفكرنا ومسلكنا الحضارى فى المستقبل · ذلك أن الثورة الفكرية المثمرة والايجابية والفعالة والبناءة هى الثورة التى يقوم بها أبناء التراث الواحد من داخله لتنقيته وبلورته ثم دمجه فى نسيج الحياة المعاصرة · وهو ما فعله بطريقة أو بأخرى مفكرون من أبناء وطننا العربى من أمثال محمد عبده وطه حسين وعبد الرحمن الكواكبى ولطفى السيد والعقاد وتوفيق الحكيم وزكى نجيب محمود وغيرهم ·

هذه الثورة الفكرية من الداخل هى تجسيد حى للتجدد والاستمرار والانفتاح بدون عقد أو حساسيات · فهى تستمد قوة دفعها مما فى ماضى تراثنا من انجازات علمية وآفاق عقلانية سواء أكانت تمثل المنهج أو الأفكار والآراء والاتجاهات · وهى الآفاق الكفيلة بوضعنا على خريطة الفكر العالمى المعاصر لأنها تحتوى على المنهج الذى أدى الى كل انجازات الحضارة المعاصرة · وبدون توظيف هذا المنهج فان وجداننا سيظل معوقا ، محبوسا ، مكتوما ، محليا

فى زمن ينطلق فيه العالم صوب آفاق حضـــارية جديدة بسرعة الصواريخ والأقمار الصناعية ·

ولا تقتصر قيمة التراث العربى على الانتاج الأدبى فحسب من شعر ونثر ، بل تشمل ، أيضا ، الانجازات العلمية التى أبدعهـا العلماء العرب ، سواء فى مجال المناهج النظـرية أو الأبحـــاث التجريبية التى تعتمد على العقل وأحكامه ومقاييسه · وأى مطلع على التراث ، يدرك أن ايمان العلماء العرب بسلطان العقـــل بلغ بهم حد اعتباره السبيل الوحيد للوصول الى الملكوت · وهو تراث تألق زهاء ثمانية قرون تحت ســـماء بغـداد ودمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة ، وفضله الكبير على النهضـــة الأوروبية لايمكن أن يجحد ·

وفى مجال صياغة الوجدان العربى لابد أن نفرق بين العالم ، والمتعلم ، والمثقف · فالعالم هو من بلغ القمة والاحـاطة الشاملة بجزئية من جزئيات العلم أو المعرفة ، وأضـــاف اليهـا جديدا ، والمتعلم هو من درس مناهج معينة ، وحصل على قسط من المعــرفة فى مادة أو مواد مختلفة ، أما المثقف فيعد القاعدة العريضة التى ينهض عليها الوجدان القومى اذا ما اعتبرنا العالم رأس حربة · ولذلك تتعدد الشروط التى يجب توافرها فى المثقف على نطـــاق قومى واســـع ·

من هذه الشروط أن يجيد المثقف لغتـــه القومية ، ذلك أن غياب الوعى العميق باللغة القومية لايعنى ســـوى اهداره للينبوع الأول لعلمه وثقافته ، فاللغة لاتنفصــــل عن الفكر وبالتـــالى عن السلوك · فالانسان يفكر بلغته حتى اذا لم ينطقها ويتكلمها أمام الآخرين ، فهى منهج للتفكير والفكر قبل أن تكون مجرد أداة للتعبير العابر ، وبالتالى فان من يعجز عن التمكن من لغته القومية لابد أن

يعجز عن التفكير المنهجي المتسق ، ناهيك عن الفكر الذى هو مرحلة متقدمة على التفكير ·

يتحتم أيضا على المثقف أن يجيـــد لغة أجنبيـــة على الأقل ، قراءة وكتابة ، لكي يطلع على الانتاج العالمي فى لغته الأصـــلية ، وليس مترجما ، لأن الترجمة ـ مهما كانت دقيقة ـ تفقـــد النص بعض قيمته · فمهما قرأ المثقف شـــكسبير أو هوجو أو ميلتون ، فلن يصل الى الروح الأصيلة بهؤلاء العباقرة الا اذا قرأهم بلغتهم الأجنبية · أما المتعلم التقليدى فيمكن أن يعتمد على الترجمة لأنه يهتم بصفة عامة بجمع المعارف والمعلومات دون أن يشغل نفســـه بالروح التى شكلتها على نحو معين ·

ينطبق هذا أيضا على العلم والعلماء · فالمثقف لايستطيع أن يستوعب آينشتين أو نيوتن أو هيجيل أو ديكارت ، دون أن يعرف لغاتهم الأجنبية معرفة واعية · ففى عملية الترجمة لابد أن تتساقط بعض الدلالات أو التفصيلات الدقيقة التى يمكن أن تفيد فى اكتمال الصورة العامة ، خاصة اذا كان المترجـــم غير متخصص بالمعنى الدقيق فى هذا الفرع من العلوم · وبالطبع فان المثقف غير مطالب باجادة كل هذه اللغات الأجنبية ، وانما يكفيه لغة أو لغتين ، على أن يكمل ثقافته من خلال المترجمات ·

ويجب على المثقف أيضا أن يكون على دراية شـــبه شـاملة ووعى عميق بدينه ، وأوجه الاتفاق أو الخلاف مع الأديان الأخرى · فلا يكفى أن يكون مسلما أو مسيحيا بشهادة الميلاد فقط ، بل يتعين أن يكون ملما بكل الأركان الأساسية التى تنهض عليها الأديان · فالجانب الروحى كان مواكبا دائما لنهوض الحضارات الانسانيـــة العظيمة · ولايمكن أن نتصور تبلور وجدان قومى دون هذا الجانب الذى يتخطى أسار المادة وقيودها ·

أما وعي المثقف بتاريخ وطنه والعوامل التى شكلته على نحو معين ، فشرط أساسى من شروط نظرته الى المجتمع والحياة . فالثقافة تنبع فى المقام الأول من الأوطان والقوميات ، ولذلك فهى تحتوى على نبض تاريخى لايلمسه أو يستشعره سوى أبنائها . والتاريخ هنا ليس مجرد سرد لأحداث السياسة ووقائع الحرب ، بل هو رحلة ممتعة ومثيرة فى وجدان الشعب ، أى أن له من الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والثقافية مايبز الجوانب السياسية والعسكرية ، خاصة وأن التاريخ لم يعد قاصرا على مواقف الحكام وحروب القادة بل تخطى هذه الحدود الى حياة الشعوب بكل ثرائها وخصوبتها وتناقضاتها .

والمثقف يشبه العالم الى حد ما فى حرصه على أن يكون له تخصص يسعى اليه ويتعمق فيه من خلال اهتمامه المتجدد بمصادره وموارده ، والنابغين فيه ، والمهتمين به . وهو تخصص لايمنعه من الالمام بشتى نواحى الثقافة والفكر ، بل يمكن أن يصبح بمثابة نافذة يطل منها على عالم الثقافة الرحيب . خاصة وأن العلم كما يقولون لا وطن له ، وبالذات فى مجال العلوم الطبيعية . فنحن نعيش فى عصر العلم . كل يوم نسمع عن جديد فيه ، من تليفزيون الى رادار ، الى صواريخ ، الى سفن فضاء ، الى أقمار صناعية ، الى غزو للكواكب الأخرى . فالعلم يعيد صياغة شكل العالم كله وليس صياغة وجدان البشر فحسب . ولايعقل أن يعيش المثقف فى هذا العصر ، الزاخر بالمعارف العلمية والانجازات التكنولوجية دون الالمام بها وبنتائجها على مستقبل البشرية سواء فى المدى القريب أو البعيد . فالمثقف بطبيعته لابد أن يعيش عصره الذى يشكل النبع المتجدد لثقافته .

ومن الشروط التى يجب أيضا أن تتوافر فى المثقف أن يكون على معرفة وثيقة بالحضارات والفلسفات : الحضارة الفرعونية ،

الحضارة اليونانية ، الحضارة اللاتينيـة ، الحضـارة القبطية ، الحضارة العربية الاسلامية ، الحضارة الأوربية ثم الحضـارة المعاصرة بصفة عامة · ومن خلال الاحاطة بهذه الحضارات يعرف الفلاسفة والعلماء العظام الذين أثروا فى توجيه الفكر الانسانى وصياغة وجدانه مثل سقراط ، أفلاطون ، أرسطو ، ابن سـينا ، ابن رشد ، ابن النفيس ، الرازى ، دانتى ، أبى العـلاء المعرى ، نيوتن ، كوبرينكوس ، شوبنهاور ، لامارك ، جاليليو ، آينشتين ، وغيرهم ممن تركوا بصمات واضحة على وجدان البشرية ومسيرتها الحضـارية ·

كذلك يجب على المثقف أن يكون على دراية واسـعة بالمذاهب الفكرية ، والسياسية ، والاقتصـادية مثـل الديمقراطيـة ، الرأسمالية ، الليبرالية ، الاشتراكيـة ، الوجـودية ·· الخ · والعوامل التى أدت الى ظهورها وانتشارها ومدى اندماجهـا فى الوجدان الانسانى العام ، ومراحل ازدهارها أو تدهورها ، وكذلك موقف الفكر العربى المعاصر منها ، ومدى استفادته منها · فالانفتاح على هذه المذاهب الفكرية لايعنى الذوبان فيهـا ، كما أن تفنيدها وتعرية سلبياتها لايعنى اغلاق النوافذ والأبواب فى وجهها ·

ولسنا فى حاجة الى التأكيد على ضرورة أن يكون المثقف ملما بالآداب والفنـون المختلفة من شـعر ، الى مسرح ، الى قصة ، الى تصوير ، الى نحت ، الى عمارة ، الى موسيقى ، الى سـينما ، وعلى دراية واعية بمدراسـها ومذاهبهـا المختلفـة كالكلاسـيكية ، والرومانسية ، والمثالية ، والانسانية ، والميتافيزيقية ، والصوفية ، والتأثيرية ، والتعبيرية ، والوجودية ، والتجريدية ، والسيريالية ، والتكعيبية ، وما يسـتجد من اتجاهات طليعيـة ·· فقد كانت الآداب والفنون مواكبة باستمرار للحركات الثقافيـة والتطورات الحضارية ، مواكبة تنهض على عنصرى التأثير والتأثر المتبادلين ·

لكن يظل تراثنا هو قاعدة الانطلاق الى كل هذه الآفاق ، وهو للأسف تراث ضائع أو مضيع أو مشتت الى حد كبير فى مكتبات العـــالم كمخطوطات قديمـة ، لايلتفت اليهـــا الا المختص مـن المستشرقين • أما عامة الباحثين من العـــرب ، فلا يعرفون عنـه شيئا ، خاصة فى نواحيه العلمية • ولذلك ينبغى علينا أن نعنى بهذا التراث عناية علمية وموضوعية ، بحيث نجمعه ونحققه ونعرف الأجيال الصاعدة به ، حتى يعلموا أننا أهل أصالة فى هذا المجال ، وأن بضاعتنا ترد الينا ، وبالتالى فنحن قادرون على مواصلة مسيرتنا الحضارية على مستوى العصر •

وليس أدل على دورنا الحضارى هذا من اعتراف الحضـــارة الغربية بسبق العلماء العرب فى اكتشـــاف الجاذبيـــة الأرضية وان لم يقننوها مثل اسحق نيوتن ، وسبقهم على داروين فى اكتشاف نظرية التطور وسبقهم على شـــارل بويل فى اكتشـــاف قوانين الغازات ، وسبق ابن النفيس على السير وليم هارفى فى اكتشـــاف الدورة الدموية الصغرى ، ويضيق بنا المجال فى ذكر كل العلماء العرب من أمثال الرازى وابن الهيثم وابن سينا والخازن والخوارزمى والبنانى الذين سبقوا علماء الغرب •

لكن أوروبا حرصت على تمجيد علمائها وتسجيل انجازاتهم ودمجها فى نسيج الوجدان الأوروبى ، ففرضتهم بذلك على ثقـافة العالم كله ، ثم تناست ، كما نسينا نحن ، المنبع الذى استقوا منه كل هذه الابتكارات والابداعات ، وهو الحضارة العربيـــة • وان كانت مكتبة الكونجرس الأمريكى قد كتبت بماء الذهب على سقفها من الداخـــل : الينبوع الأول لحضارتنـــا المعاصرة كان العصر الفرعونى ، والينبوع الأول فى العلوم الطبيعية كان العصر العربى• لكن يظل هذا الاعتراف بالجميل نوعا من الشعار البراق الذى لابد أن يتحول الى حقيقة ملموسة وواقع مادى يدركه الجميع •

يكفى مثلا أن نذكر أن العلماء العرب الأوائل كانوا يؤمنون بالمشاهدة والتجربة والاختبار والتطبيق المستمر · وكان جابر بن حيان يؤكد دائما : عليك بالتجربة ، ولا تتعجل ، فمع العجلة العثار ، واتبع التعليمات جيدا ، فان لكل صنعة أساسها · أما البغدادى فكان يقول لكل تلاميذه : اذا اشتهر المرء بعلمه وخلقه سعى اليه ، وأتته الدنيا صاغرة ، وعرضه ودينه مصون · فالعالم الحق يسعى اليه ·

وقد عرف عن هؤلاء العلماء الرواد اصرارهم على تكرار التجربة ، حتى تتطابق النتائج لثلاث تجارب منها على الأقل ، عندئذ يمكن الاطمئنان الى سلامة النتيجة · أى أن المنهج العلمى كان رائدهم فى كل خطواتهم · ومن المعروف أنه بدون هذا المنهج لا تقوم قائمة لأية حضارة بكل جوانبها العلمية والفكرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية · ولذلك سيظل كل جهد يبذل لدراسة التراث عقيما ، ولايساوى ثمن الورق الذى كتب عليه ، مالم يقر الصلة القائمة بين الانجازات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية ، ويتبين ، بأقصى درجة من الوضوح ، عوامل التفاعل بينها ، لأن الجهود العلمية فى أى عصر ليست مقطوعة الصلة بمجتمعها وعصرها ، وانما هى انعكاس وبلورة للتيارات الفكرية السائدة ، والأوضاع الاجتماعية العامة ·

وهذه قضية تتصل بالمنهج العلمى · وسلامة المنهج واتساقه ضرورة ملحة لأنها تختصر مئات الأميال وعشرات الأعوام من التخبط وفقدان الاتجاه فى عصر أصبحت فيه للأيام والساعات — وليست الشهور والأعوام — اعتبارات تحرص عليها الدول المتقدمة فى سباقها المحموم نحو اكتشاف آفاق جديدة مع مطلع كل شمس· ولن يتأتى لنا الدخول فى هذا السباق الا اذا تبلور وجداننا الثقافى والفكرى فى منظومة متناغمة لاتعانى من مظاهر الانفصال أو التشتت أو الدوران فى حلقات مفرغة ·

وهذه المظاهر تتمثل فى التيار الذي ينظر نظرة سلفية الى موضوعات سلفية ، والذى ينظـــر نظرة سلفية الى موضـــوعات عصرية ، والذى ينظر نظرة عصرية الى مشكلات عصرية ، لكنهـــا تستعين بروح سلفية ، ثم التيار الذى ينظر نظرة عصرية الى مشكلات عصرية ، لكنها مبتورة الصلة بالسلف ٠

ولا يقتصر الاختلاف بين هذه التيارات على اختلاف الرأى فى مواجهة المشكلات المطروحة ، بل يصل بينها الاختلاف الى جذور التكوين وموازين الحكم نفسها ٠ فهى تيارات مختلفة المعايير ، لأنها مختلفة البناء والتكوين ، ولذلك فان احتمالات الصدام والصراع فيما بينها قائمة دائما ، فى حين أن الحياة الفكرية والثقافية فى أمة من الأمم ، أو فى عصر من العصور تكون صحيحة سوية اذا كانت قائمة على أساس واحد ، وتقيس الأمور بميزان أو معيار متفق عليه ، ثم تتنوع الاجتهادات فى حل المشكلات المطروحة ، وتختلف الأفكار المعروضة لحلولها ما شاء لها الاختلاف ٠

ولولا هذا التجانس النسبى بين أفراد الأمة الواحدة ، وأبناء العصر الواحد ، لما كان فى الامكان كتابة أى تاريخ للفكر ، يبين مراحل التطور ٠ فلابد للمؤرخ أو الدارس أن يكشف عن سمات وخصائص وصفات تميز أمة معينة فى عصر معين حتى يرصدها ويحللها ويبلورها ، أما اذا اندثرت هذه السمات وطمست هذه الخصائص والصفات ، فانه يصبح من المستحيل رسم خريطة فكرية تحدد معالم الوجدان الفكرى والثقافى لمثل هذه الأمة ٠

ومن يتعرض للوجدان العربى المعاصر بالدراسة والتحليل سيكتشف أننا مجرد تيارات متفرقة ومتعارضـــة ومتصـــادمة هدفا ومنهجا ، لكل تيار منها نغمته المفضلة ، لكنها لا تتناغم كلها معا ، الا فى بعض الأعماق ، ومن الطبيعى أن يكون تناغما مؤقتا وعابرا سرعان ما يزول بزوال الظروف التى افتعلته ٠

من هنا كانت صياغة الوجدان العربى تنهض أساسا على التجانس فى الجذور والأصول ـ برغم التمايز والتنوع فى الفروع ـ لأنه يمنح للأمم ثقافتها المتميزة ، والا فكيف جاز أن يقال عن الفكر الانجليزى ـ مثلا ـ انه تجريبى فى طابعه السائد ، وعن الفكر الفرنسى انه رياضى الطابع ، وعن الألمانى انه ميتافيزيقى بمعنى أنه يتعقب الظواهر الى أصولها العميقة ، وعن الفكر الأمريكى انه براجماتى يهدف الى المنفعة المادية الملموسة وهكذا ٠٠

وفى ظل الوجدان المتناغم والوحدة الفكرية التى تسود أمة من الأمم ، أو عصرا من العصور ، يتفاهم الناس ويصلون الى أرض مشتركة يقفون عليها فى مواجهة أمواج العصر التى تضرب سواحلهم بعنف ٠ لكننا فى عالمنا العربى نفتقر تمـــاما الى هذه الأرض المشتركة ٠ وأقل ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد أننا نعيش فى عصرين مختلفين ، فبعضنا يعيش فى الماضى فى مشكلاته وحلولها الماضية التى تنتمى الى عصرها البعيد ، وبعضنا الآخر يعيش فى الحاضر بصرف النظر عن اعتبارات ماضيه ، مع انقسام كل تيار من هذين التيارين ، الى شعبتين كما سبق القول ٠

ولذلك لم يكن عجيبا أن نتبادل فيما بيننا اتهامات أو صفات يطلقها بعضنا على بعض ، فنصف تيارا بيننا بأنه قديم ورجعى ومتحجر ، وتيارا آخر بأنه جديد ودخيل ومزيف ٠ والعجيب أن هذا التقسيم المفتعل ظل محور العراك الفكرى منذ أوائل هذا القرن وحتى يومنا هذا ، بل يبدو أنه يتصاعد ويتعقد من جيل لآخر ، مع اختلاف يسير فى التسمية ، فقد كنا فيما سبق نتحدث عن المعركة بين القديم والجديد وأصبحنا نتحدث اليوم عن الصراع بين الرجعية والتقدمية ، ولكن المضمون واحد فى كلتا الحالتين ٠ وهذه ظاهرة مرضية خطيرة للغاية وكأننا لا نمل ولا نسأم الدخول فى طرق مسدودة ، والضياع فى متاهات جانبية ، والدوران فى حلقات

مفرغة على مدى قرن بأكمله ، فى حين تبحث الأمم المتحضرة عن أقصر الطرق وأسرع السبل لاكتشاف آفاق جديدة ٠

واذا رجعنا الى تراثنا العريق سنجد أن هذا التقسيم المفتعل لم يكن واردا عند أسلافنا ، فلم يعرفوا التفرقة بين ما هو قديم وما هو جديد ، اذ ان الاثنين وجهان لعملة واحدة هو تواصل المسيرة الحضارية واتساق الوجدان القومى ٠ فقد كانوا جميعا فى كل فترة زمنية ، يشتركون فى أصول واحدة ، ولا يكون الاختلاف الا فى الرأى والمنظور والزاوية والمذهب ٠ كذلك لم يكن هذا التقسيم واردا فى ثقافات البلاد المتقدمة ، فلا يعرف الأوربيون أو الأمريكيون أن هناك بينهم فريقا قديما وآخر جديدا برغم الحرية التى يتمتعون بها والتى تتيح لهم كل مظاهر الاختلافات الشديدة فى معترك الأفكار ٠

أما نحن فى حياتنا الثقافية والفكرية فنعمل دائما على تقسيمها وتعميق الحواجز بين أقسامها وتياراتها الى درجة التفتيت الى أصغر جزئيات ممكنة ٠ فما يظنه تيار منها أنه أمر جلل خطير يتطلب الحل السريع والحاسم ، لا يجد فيه تيار آخر ما يستوجب مجرد الذكر ، لانعدام الصلة بينه وبين حياة الناس المعاصرة ، وما يراه تيار ما جادا كل الجد ، لا يرى فيه تيار آخر الا هزلا كل الهزل ! ولا يمكن أن يستقيم وجدان أمة مصابة بمثل هذا الانفصام الفكرى ٠

هنا تبرز قيمة وفاعلية وضرورة التيار الذى ينظر الى مشكلاتنا الراهنة نظرة عصرية ، مستعينا بما تصلح الاستعانة به من تراثنا المجيد ٠ وقد حمل لواء هذا التيار أعلامنا المحدثون الذين تتألق أسماؤهم فى سمائنا ، من أمثال الطهطاوى ، وعلى مبارك ، ومحمد عبده ، ولطفى السيد ، والعقاد ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم ،

وزكى نجيب محمود وغيرهم . فقد سعوا سعيا حثيثا للتخلص من التمزق المزمن فى وجداننا القومى ، وتدعيم كل عناصر التجانس الذى يهدف الى ترسيخ تيار فكرى متبلور لهذا الوجدان ، وذلك من خلال نظرة عصرية ، الى مشكلات عصرية ، بشرط أن تظل الرابطة الحيوية واصلة قديمنا بحديثنا .

والمثقف العربى لا يمكن أن يكون مثقفا دون أن يكون لنفسه وجهة نظر يقيس اليها مواقف الحياة وأحداثها . فاذا كان العلم مقيدا بالواقع ، فان الثقافة أقرب الى المعيار نهتدى به الى ما ينبغى أن يكون . ومن هنا لا ينشغل العلم بقيم الخير والشر أو قضايا الجمال والقبح ، أما الثقافة فمعنية بتلك القيم والقضايا لأنهـا شغلها الشاغل . العلم عقل أما الثقافة فذوق . العلم منهج ينهض على مبادىء المنطق ، والثقافة دفقات وجدان . ومع هذا التباين كله بين العلم والثقافة ، هناك ما يربطهما معا فى كيان واحد ، هو كيان الانسان بكل جوانبه المتعددة .

والانسان ــ على ضوء ثقافته ، أى على ضـوء وجهة نظره ــ يختار لنفسه الأهداف ، ثم يلجأ الى ما لديه من علم ، ليحقق تلك الأهداف . فالعلم هو الذى يرسم الخطوات الموصلة الى الهدف ، أما اختيار الهدف فى حد ذاته ، فلا شأن للعلم به . فالعلم يحلل ما بين يديه ، لكنه لا يفاضل ولا يختار ، فى حين أن الثقافة كوجهة نظر تعرف كيف تفاضل وتختار لأنها وجدان وذوق .

وحركات التغيير والتطوير بل والثورة ، تنبثق كلها من الثقافة وليس من العلم ، لأن تلك الحركات عبارة عن رغبة فى التحول من حالة قائمة الى حالة أخرى مختلفة . وهذه الرغبـة تنبع من الجانب الوجدانى فى الانسان فى حين يقوم العلم بدوره كوسيلة

لتحقيق هذا التغيير الذي يتطلب بطبيعته الانطلاق من ايجابيات الماضي والتراث لاستيعاب آفاق المستقبل . فالتغيير لا يعني الانسلاخ من الماضي لان الثقافة كوجهة نظر متبلورة تتطلب شخصية قومية متميزة وعصرية في الوقت نفسه . ولذلك لابد من ابتكار البوتقة التي ينصهر فيها الموروث مع العصر للحفاظ على الهـوية القومية والحياة على مستوى العصر في الوقت نفسه .

تتبدى ضرورة هذه البوتقة لأن فينا من يحمل لواء الموروث ، والموروث وحده ، مستنزلا اللعنات على من يحمل لواء غير هذا اللواء ، وفينا من يدعو الى كل ما هو أجنبي بصفة عامة وغربي بصفة خاصة ، ثم فينا من يشكل الأغلبية العظمى بين هذا وذاك ، ويجهل التراث الأصيل والتيار العصري ، ويظن في نفسه رائدا للتأصيل الفكري ، فيأتي فكره - اذا اعتبر فكرا على الاطلاق - خاويا ، ضحلا اذ من أين يأتيه العمق اذا انسدت دونه أبواب الموروث والعصري معا !؟

من هنا تحتم صياغة الوجدان العربي علينا أن نمضي بكل طاقتنا في دراسة موروثنا دراسة المحللين الغائصين الى أغواره ، وفي دراسة المعاصرين من بناة الحضارة العالمية الجديدة ، دراسة الباحثين عن منهجها وروحها وصميمها . وهذه الاستراتيجية الثقافية والفكرية والحضارية كفيلة بتوفير المناخ الملائم للابتكار والابداع ، وبلورة وجهة النظر التي يمكن أن نسير على هديها بين أمم العصر ، بعد أن غابت عنا وجهة النظر التي يمكن أن نعرف بها وتعرف بنا .

ووجهة النظر هذه لا تتأتى من الاطلاع والقراءة فحسب ، بل من ممارسة الحياة أيضا . فهناك مثقفون بالقراءة وليس بممارسة الحياة . أي أن ثقافتهم وليدة ورق ، لا حياة يعيشها الواحد منهم ويعانيها ؛ فالفكرة النظرية المسجلة على الورق قد تصادف اعجابا

عند قارئها فيجعلها جزءا من بضاعته الثقافيه ، ويكتبها ويدعو اليها ويروجها في حين أنهـــا لا تنسجم مع نسيج الحياة لما يعيشها الانسان في ظروفه العاديه • بل ان هذا المثقف نفسه في حياته العملية مضطر الى الخضوع لتلك الحياة العمليه واضعا افكاره على الرف أو بين قوسين ، مما يصيب حياة هذا المثقف بالانفصام فتصبح له حياتان : الأولى وهو ممسك بكتاب أو مجلة أو أية وسيله من وسائل المعرفة ، والثانية وهو في خضم الحياة العمليه • وهنا يقع التناقض بين القول والفعل •

واذا كانت معالجة هذا الانفصام تكمن في الترويج للثقافة الصحيحة ، فان هذه المعالجة مرهونة في الوقت نفسه باستحداث حالة وجدانية أو استنباط وجهة نظر معينة نستخرجها من صميم الحياة العملية التى نعيشها أو التى نريد أن نعيشها • فلو أننا ربطنا الثقافة بطريقة الحياة التى نريدها لالتزمنا فى ثقافتنا بما يمكن أن يعاش ، وطرحنا من حسابنا ما لا يمكن اقحامه على الحياة • فليست هناك جدوى من الترويج لموسيقى لا صلة بينها وبين الذوق الفطرى الشعبى • وهذا التوجه القومى لا يمانع فى تطوير الموسيقى تطويرا يهذب ذوق الشعب بشرط ألا نبـــالغ فى هذا التطوير والا قفزنا به الى لون يسد الشعب آذانه دون سماعه • وكذلك فى مجال التصوير ، فلا يحبذ أن يلجأ المصور الى محاكاة اتجاهات فى الفن يصعب معها على المتذوق العادى استيعابها • فالفن لا وجود حقيقى له الا اذا تسرب الى حياة الناس وأثر فيهـــا بل وأعاد صياغتها • ومن هنا يؤخذ على رجال الفن عندنا ميلهم الى سلك دروب تبعد عن الوجدان العربى وتقيم فجوة بين الانتـــاج الفنى والوجدان القومى •

واذا كانت أجهزة الثقافة والاعلام تقوم بدور حضارى وحيوى فى مجال صياغة الوجدان العربى ، فان المدارس ، والجامعـــات

لا تزال حجر الزاوية فى هذا المجال ، لأنه اذا تخرج الشاب وفى ذهنه فكرة صحيحة عن حقائق الأشياء من خلال منهج فكرى متسق وملتزم بالتفكير العلمى فى مواجهة المواقف التى تصادفه ، فلابد أن يجد نفسه وقد تخلص من عقبات ومشكلات كثيرة ، بعد أن تحصن ضد كل أنواع الانحرافات الفكرية والسلوكية · فالمنهج العلمى فى النظر الى الحقائق والمواقف والوقائع كفيل وحده بقبول الحقائق التى يقوم عليها البرهان دون أن يكون هناك موضع لتعصب أو تطرف أو انحراف · فهذا يكون فقط فى مجال الأفكار الغامضة غير العلمية · وهكذا تستطيع المدارس والجامعات أن تخرج لنا شبابا متزنا محتكما الى العلم والعقل وحدهما دون تعصب أو تطرف ، على أن نضع فى الاعتبار مواكبة المناهج الدراسية والتعليمية لمتطلبات العصر ·

ولا شك أن القدوة تلعب دورا خطيرا فى صياغة الوجدان العربى · فلابد أن نعترف بتفشى ظاهرة التفكك الاجتماعى بما تشتمل عليه من تسيب ولا مبالاة وفوضى ونفاق وانتهازية وبيروقراطية ، وغير ذلك من السلبيات التى أصابت شبابنا نتيجة لظروف طرأت على حياتنا الاجتماعية وأوحت اليه بأن يبنى النجاح فى الحياة على غير العمل الجاد مما حدا بشبابنا الى البحث عن وسائط سلوكية بشرية تطير به فوق الرؤوس ويتخطى بها من يستحقون أكثر منه ، بدلا من البحث عن عمل ايجابى ومثمر لينجزه · ويكفى أن ينظر الشاب حوله الى الذين نجحوا وارتقوا فى المناصب والثروات ليسأل نفسه كيف حصلوا على ذلك ليقلدهم فيما صنعوه · فاذا رآهم وقد حصلوا عليها بالفكر والجهد والعرق لأعمل بدوره فكره وبذل جهدا وعرقا · ولكنه سيجد نسبة كبيرة قد وصلت لأسباب أخرى سريعة التوصيل · عندئذ يصبح من الطبيعى أن يقنع نفسه بتلك الأسباب والوسائل حتى لو كان هذا على حساب

الآخرين • فقد تعلم عدم الشعور بالآخرين ، والاستخفاف بمصالحهم ، واللامبالاة بوجودهم حتى يجد نفسه فى نهاية المطاف وهو يطبق مبدأ « أنا ومن بعدى الطوفان » •

إن سريان أخلاق معينة بين أفراد شعب انما يأتى نتيجة نوع من العدوى أو المحاكاة • ومن هنا يصدق القول بأن القدوة أهم من المبدأ نفسه ، ذلك ان وجود الرجل صاحب التأثير فى الناس وهو يسلك سلوكا مرغوبا أهم ألف مرة من تدريس مبادىء هذا السلوك فى المدارس والجامعات ، لأن المبادىء عندما تتجسد فى سلوك الناس تغرى الآخرين بمحاكاتها • ونحن الآن نمر بمرحلة أحاطت بها ظروف حدت بالفرد الى عدم الاحساس بوجود الآخرين احساسا كافيا وبالتالى فهو لا يتصـــور مدى الضرر الذى يلحقه بالآخرين عندما يتجاوز هو سلوكا خلقيا معينا • فهو يسلك السلوك النافع لشخصه بغض النظر عن نتائجه فى حياة غيره من الناس • ولا شك أن الآخرين لن يقنعوا بدور الحملان فى مواجهة الذئاب ، وبذلك تتحول الحياة الى غابة يسود فيها الانتهازى والمنافق والخبيث والمتسلق والمتآمر والمزيف ••• الخ •

ان صياغة الوجدان العربى تتطلب تغيير كل القيم والمفاهيم التى أدت الى الجدب والبعد عن الانسانية • وهذه مهمة منوطة بكل أجهزة الدولة من خلال استراتيجية شاملة سواء على المدى القريب أو البعيد • فقد ثبت أن بعض القيم الطارئة على المجتمع العربى قد أفقد العناصر الصالحة والمخلصة فيه ، السيطرة على حركة مجتمعهم ولا يمكن أن يعودوا الى التحكم فى حركته ومساره الا بقيم جديدة وثقافة جديدة • فصياغة الوجدان العربى هى حركة ترمى الى أن يتكيف الانسان – فكرا وسلوكا – مع كل متطلبات العصر العلمية والتكنولوجية والفكرية ، دون أن ينسلخ من هويته القومية بكل

خصوصيتها ومحليتها ٠ أى أن هذه الصياغة الجديدة تتطلب من الانسان عقلا جديدا ، وتفكيرا أرفع وأسمي وأشمل وأعمق ، وتدعوه الى أن يعيد النظر سواء في حياته الشخصية أو الاجتماعية ، وتواجهه باختبار شخصي واجتماعي : هل هو راض بالأسلوب الذى كان يتبعه في حياته ؟! وما الوسيلة التي يمكن أن تساعده على أن يحيا بأسلوب مختلف ؟! فهذه الصياغة تمدنا بمنهج يساعدنا على استعادة ذواتنـــا ومواجهتها باختبار لابد أن تجتازه بنجاح ، لأنه اختبار مصيرى ولا مهرب منه ٠ وليس من قبيل البلاغة أو المبالغة أن نقول اننا نمر الآن بمرحلة أن نكون أو لا نكون !

الفصل الثالث

منهج علمي للأمة العربية

اذا أردنا أن نحدد مفهوم المنهج العلمي ببساطة فسنجد أنه لا يعنى سوى تطبيق العلم على العمل · ولا شك فان استمرار العلاقة العضوية بين العلم والعمل هى أكبر ضمان لاطراد التقدم فى شتى المجالات · فالعلم الحديث لا يعنى التعقيد الأكاديمى الذى أغرم به العلماء التقليديون · وهو تعقيد وضع الكثير من الحواجز بين المعاهد العلمية والحياة اليومية ، وأوهم الكثيرين أن طبيعة الدراسة العلمية طبيعة معقدة لا يسهل علينا هضمها أو استيعابها · وأدى هذا بدوره الى نسيان حقيقة بسيطة لكنها جوهرية وهى أن العلم الانسانى كله قد بدأ بملاحظة الحياة المعاشة فى كل ظواهرها المتغيرة ، ثم تقننت هـذه الملاحظة فى نظريات ومفاهيم محددة · ولكن بسبب انفصال العلم عن العمل فى أمتنا العربية فاننا نردد فى بعض الأحيان من المفاهيم ما لا ندرك كل أبعاده ادراكا علميا وموضوعيا ·

فاذا استغلت السياسة العربية هذا المفهوم العلمى ، فسنجد أن المنهج العلمي هو الأداة الحاسمة التى تجنبنا الدخول فى متاهات وطرق جانبية تشتت الانتماء ، وتضيع الهدف ، وتعتم الرؤية ·

والسياسة بالذات من العلوم الحديثة الحافلة بهذه المتاهات التي يتعرض لها العـــاملون بها ، فتعقيدات العلم التقليدى قد تغرى السياسى بالجرى وراء التفاصيل الثانوية وترك جوهر القضية دون أن يتناوله بالمعالجة · لذلك يجب على المشتغل بالسياسة أن يمتاز بوضوح الفكر قبل أن يتبحر فى تفاصيلها وتفريعاتها · وخاصة أن السياسة من العلوم التى تحتاج الى تطبيق مستمر على الواقع · وهو واقع يتغير من يوم الى آخر ، بل من ساعة الى أخرى · والسياسى الذى يعتمد فى حكمه وتقييمه للأمور على مقاييس ثابتة لابد سيجد نفسه عاجزا عن استيعاب المتغيرات المتلاحقة والمتشابكة للمشكلات الراهنة · وهذا يؤكد أن العلم الذى يعجز عن ملاحقة تيار الحياة لابد أن يوضع فى المتحف ، لأن الحياة تفرض نفسها دائما على العلم وليس العكس · وما العلم الا محاولة منهجية لفهم الحياة وادراك أبعادها ·

فالمنهج العلمى يحتم الموضوعية ، أى تثبيت البحث على الجوانب المتعددة للموضوع المطروح · ويوضح الفيلسوف والمفكر العربى ابن خلدون معنى المنهج العلمى فيقول إنه مجموعة من المعـــارف والأبحاث التى وصـــلت الى درجة كافية من الوحدة والضـــبط والشمول ، بحيث تفضى الى نتائج متناسقة ومتمشية مع البدايات الأولى · فلا تتدخل فى ذلك أذواق الدارسين ومصالحهم الشخصية · وقد أثبت العرب فى عصور ازدهارهم الحضارى والســـياسى ان السياسة الناجحة تعتمد على هذه الموضوعية العلمية ، وأن هناك ثمة موضوعية خالصة تؤيدها مناهج محددة للتحقق من صحتها · صحيح أنها قد تعتمد فى بعض الأحيان على مناهج محددة ، لكن هذه المناهج قابلة للتغيير اذا حتمت المشكلات الراهنة مثل هذا التغيير · أى أن السياسة علم وفن فى الوقت نفسه ، أو نشاط فكرى ينهض على جانبين : أحدهما علمى نظرى والآخر عملى تطبيقى ·

والعلاقة العضوية بين الجانبين لا توجد فقط في علم السياسة بل يسهل تتبعها في العلوم التجريبية الأخرى · فقد أثبت العلماء والمفكرون العرب أن بين العلم والتكنولوجيا ارتباط وثيق · وفي أوج الحضارة العربية أدرك أجدادنا أن التكنولوجيا تعتمد على العلم ولا تعدو أن تكون تطبيقا له · بل ان العلم نشأ أول الأمر من النشاط التكنولوجي ، وانبثقت أصوله من القواعد العلمية · وليس من شك في أن الصــــعوبات التي تواجه في التطبيقات هي فرص لتحقيق التقدم العلمي · وقد قيل ـ في الغرب ـ ان معظم مكتشفات لويس باستير الهامة يرجع الفضل فيها الى المشـــكلات التطبيقية التي واجهته ·

والعلم الحديث يركز الانتباه ويحصر العناية دائما في تطبيقات العلم ، فلا يعترف أن غايته ينبغي دائما أن تكون المعرفة لذاتها · فالغاية النظرية والغاية العملية متلازمتان متكاملتان · لذلك لا يصح أن نناقض بين المعرفة التطبيقية والمعرفة العلمية ، بحيث نقول ان المعرفة التطبيقية تنصب على المحسوس وهدفها العمل ، في حين تبعد المعرفة العلمية عن كل اهتمام عملي تطبيقي ، وتبغي ادراك الحقيقة على مستوى الأفكار الخالصة المجردة · ففي العلم الحديث لا تنفصل النظرية عن التطبيق · ومن ثم فليس بينهما اختلاف في الطبيعة ، إذ إن في احداهما كما في الأخرى ، يبدأ الانسان من الاحساسات والأفكار ويكتشف بين الكيفيات التي يدركها علاقات ثابتة أو قوانين ، وتتيح له هذه القوانين بالتالي أن يمارس نشاطه العملي ·

ومن الواضح أن الملاحظة والفروض والبراهين التي يعتمد المنهج العلمي ليست بالخطوات الجديدة على الفكر العربي · لكن بينما تستخدم هذه الخطوات في معظم الأحيان بطريقة تلقائية ،

فان المنهج العلمى يقوم بتنظيمها وتنسيقها ولا يعتمد عليها عفوا ، بل يقصد اليها قصدا ، وتطبق بغاية الدقة والانتباه والحيطة · ولقد أكد أبو بكر الرازى عمليا على أهمية المنهج العلمى وضرورته · فلا يكفى أن يكون لدينا عقل سليم، بل ينبغى أن نستخدمه استخداما سليما · واذا كان ثمة اختلاف بين الناس فى مستوى الذكاء ، فلا يرجع هذا الى تفاوت فى ملكاتهم الطبيعية ، وانما إلى اختلاف المناهج التى يتبعونها ·

ولكل علم منهجه الخاص به ، أى لكل علم القواعد والعمليات المرتبطة بطبيعته ، والتى تتيح له أن يحصل على المعرفة الصحيحة فى طريق بحثه عن الحقيقة · ومن الملاحظ أنه أيا كان المنهج المتبع فإن العقل يستبدل بالمعارف المختلطة التى تزوده بها التجربة ، مبادى دقيقة مؤلفة من عناصر محددة وواضحة · إن العقل يحلل الواقع إلى عناصر يمكنه بفضلها أن يعيد تأليفه · فالعمليتان الجوهريتان لكل علم هما التحليل والتأليف · وقد قيل إن كل معرفة هى تحليل بين تأليفين : التأليف الأول هو بمثابة ضوء يسطع على الكل فيوضحه ، والتأليف النهائى هو الدقة والتحدد والتميز ·

وقد سبق للعقل العربى أن أدرك أن العقل العلمى لا يمكن أن يتحول الى أداة باردة لا تحس ولا تشعر · فالنفس البشرية قد جلبت من عقل وعاطفة · وعلى العقل العربى المعاصر أن يتحكم فى العاطفة ويحيلها الى طاقة دافعة وبناءة · وكلما ازداد تحكم العقل كان هذا ايذانا ببلوغ الانسان أرقى مراتب الموضوعية · واذا كان المنهج العلمى يسمح بوجود العاطفة فلا يعنى أنه يسلس لها القياد · وخاصة أن المنهج العلمى هو لغة العصر بالنسبة لكل دول العالم المتقدمة ، أما العاطفة فأصبح مجالها الفنون بصفة عامة · واذا طبق

الساسة العرب هذا المفهوم على السياسة كعلم حديث ، فسيجدون أنها لا تحتمل شطحات العاطفة التى غالبا ما تتبخر تحت شمس الحقائق العلمية الراسخة · ومهما بدت العاطفة قوية ومشحونة ومتدفقة فى أول الأمر فانها سرعان ما تتبدد اذا لم يضع لها العقل العلمى المنهج الذى ينظمها ويستفيد من طاقاتها المشتتة ·

والأمم المتقدمة لا تعترف بالتشنج أسلوبا لحل مشاكلها ، لأن صراع الحيـــاة لا يكون ناجحا الا اذا رجحت كفـة العقل ، لأن العاطفة غالبـــا ما تدخل فى طرق مسدودة ومتاهات جانبية مما يضيع الوقت ويشتت المجهود · وضياع الوقت والمجهود يعنى أن الآخرين يسبقوننا في مضـــمار الصراع بمسافات مضاعفة · فالوقت الذى لا نكسبه لابد أن نخسره فى صراع الحياة · وأى مفكر عربى ـ من المحيط الى الخليج ـ لابد أن ينظر الى هذه الاعتبارات بعين الفحص والدرس ·

فالمنهج العلمى بعقلانيته وموضوعيته هو الأسلوب العملى الذى يؤدى الى احياء الحضارة العربية بأسرع ما يمكن · وهذا الإحياء له جانبان : الأول فردى والثانى اجتماعى·فالاحياء الحضارى يتمثل فى الفرد فى صفاته العقلية والعاطفية · فلابد للفرد من الناحية العقلية من قدر معين من المعارف العامة ، والمهارة الفنية فى مهنته ، وعادة تكوين الرأى بالشواهد والدلائـل ، ولابد له من الناحية العاطفية من قدر معين من الحياد الموضوعى ، والرحمة بالآخرين ، وشىء من ضبط النفس والبعـد عن التشنج · أضف الى ذلك صفة لا هى بالعقلية ولا بالعاطفية · بل ربما كانت فسيولوجية ، وهى صفة الاقبال على الحياة والاستمتاع بها ، تلك الصفة التى اشتهر بها الانسان العربى على مر العصور ·

وعند دراسة سلوك الانسان العربى تبرز ضرورة الاحاطة بكل الارتباطات بين احساسات الانسان وانفعالاته وعواطفه ورغباته ،

وبين ما ينبغى أن يكون عليه سلوكه الانسانى من نضج واتساق وضبط · فليس من المستطاع تخيل الانسان وقد خلا من الرغبة والانفعال والعاطفة ، فلو فعلنا لفات علينا دقة تقدير السلوك الانسانى تقديرا علميا سليما · إن فى الانسان صراعا لا محيص عنه بين العقل الموضوعى والعاطفة الذاتية · ولأن حياة الانفعال حياة خطرة على الانسان العربى فردا وجماعة ، فليس فى وسعنا مع ذلك أن ننكر ما للشحنة الانفعالية فى الانسان من قيمة عظيمة ، اذ لو وجهت التوجيه الصحيح لأفضت به الى اعادة الحضارة العربية الى سابق مجدها · ان الانسان العربى يقف بين طرفين : طرف العاطفة والانفعال والاندفاع وطرف العقل والحكمة والانضباط · وليس من شك أن سعادته مرهونة بتحقيق التوازن داخله بين الطرفين · لذلك يحتم المنهج العلمى سيادة النضج والحكمة بالاستناد الى الدليل والبينة · ان العلم للخير والشر على حد سواء ، وعلى الانسان العربى أن يختار الخير بالتشرب بالروح العلمى · فالمنهج العلمى له أخلاقياته الخاصة به ، وهذه الأخلاقيات تتمثل فى الموضوعية المجردة الخالصة ·

الفصــل الرابــع

الثورة العلمية بين اليمين واليسار

لا أعتقد أن لفظ « الثورة » تردد وتكرر الى درجة الملل ، فى أية بقعة من عالمنا المعاصر مثلما تردد وتكرر فى عالمنا العربى ٠ فهذا يصرخ بالثورة السياسية ، وذاك يصيح مرددا شعارات الثورة الاجتماعية ، وثالث يدق طبول الثورة الاقتصادية ، وآخر يصم الآذان بثورته الأيديولوجية ٠٠٠ الخ ٠ وهذه الظاهرة ـ إن دلت على شيء ـ فانها تدل على أن عقولنا وأفكارنا لا تزال تعيش العصر الذى بدأ بالثورة الفرنسية واستمر حتى تقسيم العالم الى معسكرين فى أعقاب الحرب العالمية وبداية الحرب الباردة التى انتهت أخيرا بتفتت الكتلة الشرقية ٠ وهو العصر الذى شهد أكبر قدر من الثورات التى تمنهجت فى أيديولوجيات سياسية بدأت بشـعارات الثورة الفرنسية الشهيرة : الحرية ـ الاخاء ـ المساواة ، وتفرعت بعد ذلك لتأخذ ألوانا ونماذج وتنويعات تختلف باختلاف الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى تعيشها المنطقة التى اندلعت فيها الثورة ٠ وأصبحت الشعارات والأيديولوجيات وأحيانا اللافتات ضرورة ملحة كلسان حال الثورة ، والواجهة التى تقدم بها نفسها للعالم ، بل وتحاول تصديرها أو فرضها على المناطق المجاورة اذا كانت تملك أسباب القوة اللازمة ٠

ونظرا للحمى الأيديولوجية التى أصابت منـاطق عديدة من العالم ، خاصة فى الدول الفقيرة أو النامية مع بداية الحرب الباردة ، تحولت الأيديولوجيات الى أصنام مقدسة يستحيل أن تمس أو أن تتغير أوضاعها واتجاهاتها الا بثورة مضادة ترفع بدورها شعارات وأيديولوجيـات مضادة ٠ وهكذا أصبح البشر فى خدمة الأصنام الجديدة بل وقرابين على مذبحها فى بعض الأحيان ، وذلك بدلا من أن تصـــبح الأيديولوجيات منـاهج علمية وعملية لخدمة التقدم الحضارى للبشر ٠

ووجدت الديكتاتوريات الحديثة فرصـــــة ذهبية فى هـذه الأيديولوجيات السياسية التى أصبح الطغاة والحكام والزعماء كهنتها القائمين على طقوسها والتى لا يعرف أسرارها وتفاسيرها أحد سواهم ٠ والويل والثبور وعظائم الأمور لمن يحاول أن يفسرها تفسيرا مختلفا وليس على هوى الديكتاتور والوصى عليها ٠ وكان هذا مناخا صالحا لانتشار الانتهازيين والمتسلقين والطفيليين وحملة المباخر الذين يعدون من أهل الحظوة أو أهل الثقة بالتعبير المصرى الشهير ٠ أما أهل الخبرة والعلم الذين يرون أحيانا فى خبرتهم وعلمهم توجهات قد تتناقض مع أيديولوجيات السـلطة المعلنة ، فعليهم أن يكتموهـا ويخفوها ، بدلا من أن تقوم السلطة باخفائهم هم شخصيا فى السجون والمعتقلات التى قد لا يعودون منها ٠

من هنا وضع العلم فى خدمة الأيديولوجية ، بحيث لا يزدهر أحد فروعه الا اذا كان الساسة فى حاجة اليه ، وغالبا ما يكون هذا الفرع مرتبطا بتكنولوجيا الانتاج الحربى أو غير ذلك من الانجازات التى تبهر الشعوب الأخرى أو تهددها ، فاما أن تعتنق الأيديولوجية المرتبطة بهذه الانجازات العسكرية أو تقبع فى عقر دارها طلبـا للسلامة من هذه القوى الطاغية ٠ أما الانجازات العلمية الخاصـة بتطور حياة المواطنين العاديين وتقدمها داخل الوطن فلا تهم كثيرا ،

فهم قانعون بالتطبيق الحرفى للأيديولوجية حتى لو بلغ بهم حد الكفاف أو تعدى بهم خط الفقر ٠ ولا خوف منهم لأنهم لا يشكلون أى تهديد للسلطة ، اذ أنهم يعلمون جيدا أن أجهـزة المخابرات والمباحث والأمن بالمرصاد لكل من يزين له عقله فكرا أو سلوكا مختلفا ٠

ولعل أشهر نموذج لهذا التوجه ، وضع علم الاقتصاد فى خدمة الايديولوجيه بحيث يتم تقنين نظرياته ومناهجه طبقا لها ، وذلك بصرف النظر عن الامكانات او الظروف التى ترتبط بهذا الاقتصاد ٠ وكان من المعتاد أن نجد دولة تعانى من متاعب اقتصادية ، وتستورد أضعاف ما تصدر ، بل وتقترض بفوائد عالية ، ولكنها فى الوقت نفسه تهرع لتقديم معونات عينية أو مساعدات مالية أو دعم عسكرى لدولة أخرى تعتنق نفس أيديولوجيتها وتدور فى فلكها ٠ وبذلك أصبح الاقتصاد تحت رحمة السياسة ، نسى هؤلاء الأيديولوجيون المتحمسون أن الاقتصاد هو القاعدة الصلبة التى تنهض عليها أية سياسة ، لأنها بدون هذه القاعدة تصبح شعارات فارغة وطبولا جوفاء ، بل وتخريبا مستمرا للبنية الاقتصادية ، حتى يأتى فى النهاية على البقية الباقية فيها ، وينهار البناء كله ويتناثر أشلاء هنا وهناك ٠

وهذا يفسر لنا السر فى أن كل الثورات والأيديولـــوجيات والانقلابات التى منيت بها دول العالم الثالث على وجه الخصوص ــ ومن بينهـــا الدول العربيـــة بطبيعـــة الحال ــ تحولت الى نكسات أو نكبات ولم تؤد الا الى مزيد من التخلف والانهيار والدخول فى حلقات مفرغة من الصراع على كراسى السلطة ٠ صحيح أن كثيرا من هذه الثورات والانقلابات كانت ذات نيات طيبة بل ورغبات جامحة فى التغيير والاصلاح والتقدم ، لكن الحماس وحده لا يكفى ، والطريق

الى الجحيم ممهد بالنوايا الطيبة · وأية خطوة او حركة بدون علم او دراسه او معرفه هي قفزة في الظلام أو نكسه الى الوراء ، وذلك في عصر تنطلق فيه امم الحضارة والعلم الى آفاق المستقبل بسرعة مذهلة لم يعرفها العالم من قبل ·

وحتى عندما انقسم العالم فى اعقاب الحرب العالمية الثانية الى قوتين عظميين تنادى كل منهما بمبـادىء سياسية واقتصاديه واجتماعية وثقافية مختلفة اختلافا أدى الى المواجهة العســكرية بينهما ، إلا أن السباق بينهما كان فى جوهره سباقا علميا · فقد حاولت كل قوة منهما استقطاب أكبر عدد ممكن من الدول النامية أو الفقيرة أو المتخلفة الى معسكرها تحت أعلام الأيديولوجيا البراقة التى تعد بجنة الغد المرتقب · فهذه تنادى بالحرية والديمقراطية والدفاع عن حقوق الانسان وتتهم الأخرى بمعاداة هذه القيم والمبادىء الانسانية ، وتلك تنادى بحقوق الشعب العامل ، ورفع شــأن الكادحين ، والمساواة ، والاخاء ، وتتهم الأخرى بتحويل العالم الى غابة يأكل فيها القوى الضعيف ، والغنى الفقير ·

وظل السباق على هذا المنوال المحموم بلا حسم وبلا رجحان كفة احدى القوتين على الأخرى ، ذلك أن الأيديولوجيات فى جوهرها شعارات مرفوعـــة لزوم الاعـــلام والدعاية ، أما التطبيقـات العملية فغالبا ما تأخذ مسارات مختلفة · ولذلك كان الحسم الذى وقع أخـــيرا بينهما نتيجة للتفـــاوت العلمى وليس للاختـــلاف الأيديولوجى · وعندما نذكر التفاوت العلمى فاننا نعنى بالضرورة علم الاقتصاد المرتبط بكل العلوم الطبيعية والانسانية التى تساهم فى زيادة الانتاج ورفع مستوى المعيشة وتدعيم القاعدة السياسية · والمبدأ الذى يقول بأنه لا كرامة لجائع مبدأ صحيح تماما · وهذا الجائع لن يقتات على الأيديولوجيات والشعارات واللافتات ، انه يريد

أن يملأ بطنه ، ويستر جسده ، ويقيم فى مسكن ، ويعلم أولاده ، ويجد العلاج وغير ذلك من المتطلبات والحاجات التى لن يوفى بها سوى العلم وتطبيقاته ، ولا يهم فى هذه الحالة اذا كان هذا العلم وتطبيقاته على النهج اليمينى أو اليسارى ، بالأسلوب الرأسمالى أو الاشتراكى · فالعلم فى جوهره واحد وقادر على حل كل المشكلات بشرط أن تتحول الأيديولوجية الى أداة انسانية حقيقية وفعلية فى يده ، لا أن تصبح قيدا على تحركاته وانجازاته ·

وكان التدهور والانهيار والتفتت الذى جرى للمعسكر الشرقى نتيجة للاقتصاد الذى ظل تحت رحمة الأيديولوجيا منذ ما يقرب من نصف قرن ، حتى انهك تماما · وعندما تداعت القاعدة الاقتصادية لم تفلح الشعارات الأيديولوجية وسدنتها فى صد الطوفان الذى اجتاح فى طريقه كل شىء · وكان من الممكن أن تقع نفس الكارثة للمعسكر الغربى لو أنه وضع العلم فى خدمة الانتاج الحربى وغزو الفضاء والكواكب الأخرى ، وتحت رحمة الأيديولوجية الرأسمالية · لكنه أطلق العنان لكل طاقات العلم فى جميع المجالات ، بل انه كان مركز جذب للعلماء القادمين من الدول الأخرى بصفة عامة ، والدول الشرقية بصفة خاصة · كما تحرص المؤسسات الرأسمالية الضخمة على امداد مراكز الأبحاث العلمية بالدعم المالى ، كل فى مجال تخصصه ، وعندما يثبت نجاح التجربة بما تحتويه من ابتكارات جديدة ، تهرع المؤسسة المعنية الى تطبيقه عمليا على أوسع نطاق ليدر عليها أرباحا طائلة ·

ولذلك لم يكن الصراع بين المعسكرين الشرقى والغربى صراعا عسكريا أو سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا أو أيديولوجيا كما يتبدى لأول وهلة ، فهذه كلها مظاهر خارجية لجوهر الصراع العلمى الذى دار بينهما · ان كل اختراع جديد أو نظرية متطورة مستحدثة

لا يعنى سوى أن صاحبها قد أحرز نقطة ضد الطرف الآخر فى حلبة الصراع ، وعلى هذا الطرف أن يلحق بالركب باختراع أو نظرية أخرى حتى لا يتخلف ، لأن التخلف لا يلد سوى التخلف ، والتقدم لا ينتج عنه سوى التقدم وهكذا ! وبصرف النظر عن أنظمة الحكم الرأسمالية والاشتراكية ، فان نجاح هذه أو فشل تلك يتمثل فى علوم الادارة الحديثة ومدى الاستفادة العملية فى مجال تطبيقاتها ٠

وعلوم الادارة لا تهتم بالأيديولوجية التى يعتنقها المواطن ، لأنها تركز عليه كطاقة يجب أن تتاح لها كل الفرص والامكانات للانتاج بحيث يصبح السؤال الذى يطرح نفسه هو : ماذا ينتج الانسان وكيف ؟! وليس : ما نوعية الأيديولوجية التى يعتنقها هذا المنتج ؟! وبذلك تصبح الاجابة البدهية : له أن يعتنق أية أيديولوجية بشرط أن تتحول الى طاقة ومنهج للوصول الى أعلى وأرقى معدلات الانتاج ، وتكون قابلة للتعديل المستمر كلما جد جديد فى مجال التطبيق العملى ٠

وبصرف النظر عن المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى ، واللذين فى طريقهما الآن الى التآلف بل والاندماج على المستوى العلمى والعملى ، فان دول العالم الثالث لم تدرك أبعاد الثورة العلمية التى يخوضها العالم المتقدم الآن ، فتركت الجوهر وأمسكت بالمظهر ، أهملت اللباب وسعت وراء القشور ٠ فنحن نعيش عصر الثورة العلمية ، وثوار اليوم هم العلماء فى معاملهم ، والخبراء فى مراكز أبحاثهم ، والأساتذة فى قاعات محاضراتهم ، والمؤلفون فى كتبهم ودراساتهم ، والفنانون والأدباء والمثقفون الذين يطورون عقل أمتهم بالفن والأدب والثقافة ٠

وهذه الثورة ليست فى حاجة الى حناجر عالية ، أو خناجر حادة ، أو بنادق سريعة الطلقات ، أو متاريس فى مداخل الطرقات ،

أو لافتات ضـخمة ، أو مظاهرات صاخبة ، أو هتـافات مدوية ، أو شـعارات رنانة ، بل فى حاجة الى اعمال العقل بكل الطرق والوسائل لما فيه خير الوطن والبشرية جمعاء · والعلم والتكنولوجيا ينهضان على مبادىء واحدة مترتبة على نظرات الفكر العلمى ـ وليس الأيديولوجى ـ منذ فجر الحضـارة الانسـانية · اذ أن الفكر الأيديولوجى كان يركز دائما على العنصر الانسـانى المتعامل مع الانجاز العلمى والعملى ، ولذلك لم يتعد هذا الفكر حدود القيم الانسانية التى تعارف عليها البشر منذ بداية ادراكهم للحياة المحيطة بهم ، ومهما تغيرت ألوانه وأنماطه وتبدلت مفاهيمه وتوجهاته فانه فى النهاية يعمل على الدفاع عن حقوق الانسان وكرامته فى مواجهة الطغيان التكنولوجى وتعقيداته المتنامية ، وفى أحيان كثيرة يعمل هذا الفكر ضد حقوق الانسان وان كان يدعى عكس هذا ·

ولذلك أصـبحت الدول المتقدمة تنظـر الى الفوارق بين الأيديولوجيات السياسية على أنها حواجز مصطنعة · فلا حرج من أن يستفيد نظام رأسمالى من بعض المبادىء الاشتراكية ، وأن ينطلق نظام اشتراكى الى آفاق العصر بوسائل رأسمالية · ويكفى للتدليل على هذا أن نذكر دولة مثل بريطانيا لها ماض عريق فى الامبريالية والرأسمالية لم تتردد فى تأميم الطب كمبدأ انسـانى اشتراكى يتيح فرصة العلاج المجانى لكل المواطنين بل ولكل المقيمين على أرض بريطانيا · ذلك أن الدولة تعتبر صحة المواطن العادى ثروة لها فى معركة الانتـاج والتقدم ، ويجب عدم التفريط فيها بأية حال من الأحوال · كذلك من السهل تتبع بعض الملامح الاشتراكية فى قوانين العمل الأمريكية مثل التأمينات ضد البطالة والعجز والشيخوخة ، والتعويضات ، والقروض والدعم الحكومى للمشروعات · بل ان عيد العمال الذى يحتفل به العالم كله فى أول مايو ، وفى مقدمته الدول الاشتراكية ، بدأ فى مدينة شيكاغو التى تعتبر احدى معاقل الرأسمالية الأمريكية ·

كذلك فانه بمجرد انفراط عقد المعسكر الشرقي سارعت معظم دوله الى السير على نهج السوق الحرة ، وتشجيع القطاع الخاص ، والتخلص من كل القيود الأيديولوجية التى تعوق تقدمها ، بحيث أصبح من الصعب الآن معرفة اليمين من اليسار . ومع ذلك لا تزال معظم دول أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية تلعب لعبة اليمين واليسار ، وبينهما سقط الفكر العلمى فى هاوية لا قرار لها . بل ان هذا الصراع العقيم بين اليمين واليسار عاد ببعض هذه الدول الى عصر الصراع القبلى الذى يعتبر مرحلة سابقة على الاقطاع وبالطبع الرأسمالية وبعدها الاشتراكية . وهكذا تتسع الفجوة وتتعمق الهوة بين الدولة المتقدمة الغنية وبين الدول المتخلفة الفقيرة ، بحيث لم يعد العالم ينقسم الى غرب رأسمالى وشرق شيوعى ، بل ينقسم الى شمال غنى متقدم وجنوب فقير متخلف .

وقد أدركت اليابان هذه الحقيقة الجوهرية فنبذت الصراعات العقائدية والفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التقليدية التى لا ينتج عنها سوى ضياع الوقت وتشتيت الفكر واهدار الجهد فى زمن تحتاج فيه الأمم الى كل لحظة من وقتها . واذا طفت بعض هذه الصراعات على السطح من حين لآخر ، مثل منظمة الألوية الحمراء ، فهى على هامش المجتمع لا تؤثر على مسيرته الحضارية . ولم ترفع اليابان شعار الثورة العلمية وانما طبقتها على كل مناحى الحياة فى البلاد ، بحيث تستفيد من كل معطيات التراث القديم الايجابية ، وفى الوقت نفسه تنفتح بل وتبتكر أحدث منجزات العلم والتكنولوجيا . وتحولت اليابان الى خلية نحل لانتاج كل ما يمكن انتاجه برغم ندرة المواد الخام فى أرضها ، فيما عدا ثروتها السمكية ! فقد أدركت اليابان أن الانسان هو الثروة القومية الحقيقية فى نظر الثورة العلمية المعاصرة ، وأن عقله هو خير مطور ومستثمر لهذه الثروة ، وأن سلاحه فى هذا الاستثمار هو أحدث ما بلغه العلم والتكنولوجيا ! والآن بعد هذه الثورة العلمية الشاملة لا نجد ركنا

من أركان الأرض الا وفيه أنواع متعددة من منتجات اليابان فى معظم المجالات ! وكما أخذت اليابان من تراثها القديم ومن عصرها الحديث كل الايجابيات بلا حرج أو حساسية ، فانها بنفس المفهوم العلمى الشامل أخذت كل الايجابيات من المفاهيم الاشتراكية والنظم الرأسمالية • فالعامل اليابانى فى مصنعه يتمتع بكل التأمينات والضمانات والمساعدات والتسهيلات ، فى حين ينافس مصنعه أعتى المؤسسات الرأسمالية فى الغرب •

والثورة العلمية لا تحمل فى طياتها نفس الخلافات والصراعات التى تتولد غالبا عن الثورة الأيديولوجية التى تلعب فيها وجهات النظر وزوايا الرؤية دورا لا يمكن تجاهله أو انكاره • ذلك أن أسس العلم والتكنولوجيا لا تعترف بوجهات النظر وانما تعتمد على الحقائق الموضوعية الملموسة ، والتحليلات والدراسات الميدانية التى لا تترك مجالا حقيقيا للأهواء الشخصية أو الميول الذاتية أو العصبيات الطبقية أو الاقليمية • وحتى فى مجال تطبيق هذه الأسس العلمية والتكنولوجية على المجتمع ، لم تعد الفوارق فى التوجهات ووجهات النظر واضحة كما كانت فى عصر الأيديولوجيات السياسية ، ذلك أن العقول العلمية الموضوعية لا تختلف تحزبا أو تعصبا ، وانما من أجل المزيد من التطور العلمى • وهى لا تؤمن بالرأى والرأى الآخر فحسب ، بل وبالرأى الثالث الناتج عن التفاعل بين هذين الرأيين • فليس هناك صراع أو انفصام أو تواز بين الآراء العلمية ، وانما تفاعل مستمر من أجل خطوات جديدة •

وقد يبدو من حين لآخر فى دول الحضارة المعاصرة بعض الاختلافات بين أحزاب اليمين واليسار ، لكنها لم تعد تلك الخلافات التى يمكن أن تهدد الوحدة الوطنية ، بل أصبحت من قبيل الرفاهية الفكرية التى تطمح الى المزيد من التقدم • وسواء جاءت الى الحكم حكومة يمينية أو يسارية أو وسط أو يسار اليمين أو يمين

اليسار ، فالمسيرة الحضارية فى طريقها حتى لا تتخلف فى حلبة السباق المحموم ٠ وعلى هذا نستطيع القول بأن الولايات المتحدة هي أيديولوجية الأمريكيين ، كما أن اليابان هى أيديولوجية اليابانيين ، وفرنسا هى أيديولوجية الفرنسيين ، والصين أيديولوجية الصينيين وهكذا ٠٠٠ الخ ٠

متى تصبح الأمة العربية أيديولوجية للعرب ، ليس بمعنى العرقية الضيقة ، ولكن بمفهوم الثورة العلمية المعاصرة ؟! لقد أهملنا أساسيات التقدم العلمى والحضارى ، ورحنا نلعب لعبة اليمين واليسار ، ونمارس نفس الرفاهية الفكرية التى تمارسها دول الحضارة المعاصرة التى نجحت ثورتها العلمية فى القضاء على الجهل والأمية والمرض والجوع والفقر والتخلف وغير ذلك من المجالات والتحديات التى لا نزال نعجز عن مواجهتها ، والتى انشغلنا عنها بصراعاتنا السياسية التى سمحت بها التعددية الحزبية الجديدة ٠ فلم نسمع عن حزب يعلن الحرب على الأمية ويسخر فروعه ومكاتبه وهيئاته من أجل هذا الهدف القومى النبيل ! ولم يسع حزب آخر الى تجنيد الشباب العاطل للعمل فى اصلاح الأراضى واستزراعها ٠ ولم يسع حزب ثالث الى المساهمة فى تجنب مخاطر الانفجار السكانى بالعمل الجاد والدءوب فى مجال تنظيم الأسرة !

فقد اقتصر الكفاح السياسى المعاصر على اجترار الماضى ونقد الحاضر أو العكس ، وعلى ايراد الحجج الدامغة والبراهين الساطعة لتأكيد صحة توجه هذا الحزب أو ذاك ، وكأن تقدمنا العلمى والحضارى كلام فى كلام دون بادرة مبشرة بعمل ايجابى حاسم ٠ وهى كلها قضايا وهمية يمكن أن يصل الخلاف حولها الى آفاق لا يعلم مداها سوى الله ٠ أما محو الأمية ، وتنظيم الأسرة ، والتأمين الصحى ، وزيادة الانتاج ، واستصلاح الأراضى ، وغزو الصحراء ٠٠٠ الخ فكلها قضايا علمية عملية ليست فى حاجة الى جدل أيديولوجى وانما الى عمل جاد ، وايجابى ، ومثمر ٠ فاذا انتهينا

من حل هذه المشـــكلات القومية ، عندئذ يحق لنا أن نمارس كل
مظاهر الرفاهية الفكرية وفى مقدمتها لعبة اليمين واليســـار .
أما الآن فطريقنا هو الخط المستقيم الى قلب كل مشكلة على حدة .
وهى ليست فى حاجة الى تشخيص اذ انها واضحة لكل ذى عينين
وقد قتلناها تشخيصا ودراسة من قبل ولم يتبق سوى التطبيق
والتنفيذ . وقيمة العلم الملموسة تبدو فى نتائجه العملية وليس
فى مجرد دراساته النظرية . فهل آن الأوان كى ندرك هذه البدهية
الخطـــيرة التى غابت عن أذهاننا طويلا برغم أنهـــا ألف باء التطور
الحضارى الذى يعتمد أولا وأخيرا على هذه الثورة العلمية ؟

الفصـــل الخــامس

الكلمة بين البــلاغة والمبالغة

لانزال فى العـــالم العربى عاجزين عن التفريق بين البلاغة والمبالغة فى حياتنا ، سواء اليومية أو الثقافية والفـكرية والفنية والأدبية • ولذلك نجد أن معظم أحاديثنا وأفكارنا وسلوكياتنا تنهض على المبالغة التى نظنها بلاغة وهى أبعد ما تكون عن البلاغة ، وذلك على الرغم من أن العرب كانوا من أوائل الشـــعوب التى وضعت تحديدا علميا لمفهوم البلاغة على أساس أنها مراعاة الكلام لمقتضى الحال • أى أن الكلمة يجب أن تكون معادلا موضوعيا للفكرة ، لا تنقص عنها أو تزيد عليها • فاذا نقصت فان الفكرة تصل الى المتلقى مبتـــورة غير مكتملة مما قد يجعل مهمة الفهم صـعبة أو مستحيلة ، واذا زادت عليها فان المتلقى يتصور أبعادا وأعماقا غير مرتبطة بالفـــكرة وبالتـالى فانهـا تصل اليه مشوشة بزوائدها ونتوءاتهـــا •

لكن التزيد فى الكلمات أو المبالغة هى العنصر السائد فى أسلوب حديثنا وفكرنا • وبرغم تاريخنا الطويل والعريق فى مجال البلاغة التى بلغت قمتها فى التنظير النقدى على أيدى الجاحظ وعبد القاهر الجرجانى وأبى حيان التوحيدى وغيرهم ، فاننا نبدو

وقد تخلفنا عن هذه الريادة المبكرة ، واستبدلنا البلاغة بالمبالغة التي لا تعني سوى استخدام العبارات الطنانة ، والنبرات الرنانة ، والألفاظ ذات الجرس الفخيم ، والتركيز على أفعل التفضيل للايحاء بأنه ليس في الامكان أكثر بلاغة مما كان • فهذا الموقف أروع موقف في التاريخ الحديث ، وهذه المأساة هي أفدح مأساة ، وهذه الفتاة أجمل امرأة في جيلها ، وهذا المجرم أفظع مجرم تردد على ساحات القضاء •••• الخ •

وبطبيعة الحال فان تكرار استخدام أفعل التفضيل هذا يفقده القدرة على اقناع المستمع ، ناهيك عن اثارة دهشته • بل ان المبالغة تأتي بنتيجة عكسية ، خاصة اذا أدرك المستمع أن المتكلم يهدف الى المبالغة بهدف التأثير والاقناع بل والادهاش • فاذا كان المتكلم متأكدا من أن الحق الى جانبه ، وواثقا من صدق ما يقول ، فلماذا يلجأ الى علو النبرة ، والمبالغة في استخدام الألفاظ الفخمة وفي مقدمتها أفعل التفضيل الذي يصور للمستمع أنه أتى بما لم تأت به الأوائل ؟! بل ان بعض المبالغين يصل الى حد التشنج والانفعال الصاخب كي يقنع المستمع بأن ما يقوله أعنف مما يحتمل وعليه أن يجهد نفسه لاستيعابه بقدر الإمكان !

وأحيانا تدل المبالغة على عدم ثقة المتحدث بنفسه في مجال اقنـــاع الآخرين ، أو احســـاسه الدفين أو البـــاطن بعدم رغبتهم واستعدادهم لتصديقه • وفي الواقع فان ميله الدائم الى المبالغة ، دليل عملي على شكه هو فيما يقول • ونظرا لأن للمبالغة حدودا ــ شأنها في ذلك شأن أي شيء آخر في هذه الحياة ــ فانها سرعان ما تبلغ حدودها حيث تفقد تأثيرها تماما • بل انها اذا زادت عن حدها ، فانها تحيل شخصية صاحبها الى صورة مثيرة للسخرية • ذلك أن المبالغة هي نوع من الكذب المرضي الذي قد يصور لصاحبه أنه يملك من البلاغة واللعب بعقول الآخرين ما يمكنه من اقناعهم

بأفكاره أو خواطره أو هواجسه · وهى دليل أيضا على عدم النضج النفسى والفكرى الذى يوحى دائما للمتكلم بأنه غير قادر على اقناع الآخرين اذا تـــكلم بأسلوب هادىء رزين يكتفى بعرض الأفـــكار بموضوعية منطقية ووضع النقاط على الحروف ·

ويبدو أن كثرة استخدام المبالغات فى أجهزتنا الاعلامية ، وأنشطتنا الاعلانية ، وأحاديثنا اليومية قد أضاع تأثيرها المرجو تماما · فنحن من الشعوب القليلة التى لا تندهش عندما تســـمع أفعل التفضيل يلقى على مسامعها لأنها تدرك جيدا أن موضوع الفكرة أصغر وأقل من حجم الكلمة المستخدمة · بل اننا فى بعض الأحيان نقابل هذه المبالغات بابتسامة استهزاء وسخرية كنوع من الانتقام ممن يحاول الاستهانة بذكائنا · ولا شك فان المبالغات تزداد كلما هبط الوعى العام لدى الأفراد كما يحدث فى مواجهة الاعلانات التليفزيونية على سبيل المثـــال ، فهى تبهر قليلى الحظ من العـــلم والثقافة فى الوقت الذى يمكن أن تثير فيه سخرية المثقفين والمفكرين بمبالغاتها التى قد تصل الى حد السخف ·

وقد أدرك ملوك الاعلان فى أمريكا هذه الحقيقة ، فهرعوا الى توظيف المبالغة فى خدمة اعلانات التليفزيون عن طريق ادخال روح الدعابة والسخرية فى ثنايا الاعلان بحيث لا يشعر المتفرج أن هناك من يحاول الاستهانة بذكائه ، بل ان الاثنين ــ المعلن والمتفرج ــ يشتركان معاً فى روح الدعابة والسخرية من المبـــالغة التى لابد أن ترسخ فى ذهن المتفرج ماركة السلعة المعلن عنها ومزاياها فى نهاية الاعلان · نجد مثلا شركة لانتاج السيارات تقرر أن سيارتها تستطيع صعود قمة جبل ايفرست فى الهند ، أعلى قمة فى العالم · ومن الطبيعى أن السيارة لا يمكنها هذا ، ولكن الهدف لفت النظر الى ماركة السيارة قبل أى شىء آخر ، فلا المعلن ولا المتفرج يصدق أن السيارة ستصعد تلك القمة ، لكن المتفرج سيسأل حتما عن نوعها وثمنها ومكان بيعها ·

والمبالغة اذا تسلحت بالفكاهة والنكتة فانها تصبح مقبولة الى حد كبير ، خاصة وأن النكتة التى نحبها جميعا ، غالبا ما تحتوى على عنصر المبالغة فى طياتها • ففى احدى اعلانات التليفزيون الأمريكى ترى فتى وفتاة معا فى سيارة تقطع بهما الطريق الطويل وهما فى سعادة بالغة بالرحلة ، يكادان يرقصان طربا فى مقعديهما ، وبريق الحب يشع من عيونهما مع كلمات الأغنية الحالمة المنطلقة من مذياع السيارة المتهادية وسط المشاهد الطبيعية الخلوية الخلابة • ولكن فجأة تتعطل السيارة فى منتصف الطريق ، فيخشى الشاب أن تصطدم به السيارات المسرعة ، فيساهم مع فتاته فى دفع السيارة الى جانب أو الى ركن من الطريق ، ويبدأ فى فحص العدد والآلات محاولا الوصول الى سبب العطل دون جدوى • لا يعرف ماذا يفعل ثم فجأة تلمع فى خاطره فكرة فيتجه الى عجلة القيادة ويدير المفتاح ليكتشف الحقيقة من خلال مؤشر البنزين الذى لا يتحرك مما يقطع بأن وقود السيارة قد نفد • يبلغ فتاته بذلك ويراجعان معا الخرائط والأدلة فيعرفان أن هناك محطة بنزين لا تبعد كثيرا ، ويقرر أن يقطع الطريق وحده ليعود بالوقود ، فتلح عليه أن تصحبه لكنه يخشى أن يرهقها بالسير فيقنعها بالانتظار حتى يعود • ويبدأ رحلته الجديدة سيرا على قدميه حتى يصل الى المحطة ليكتشف أنه لا يحمل معه نقودا على الاطلاق • فيذكر اسمه لعامل المحطة ويطلب منه اقراضه الوقود مع تعهد بالدفع واحضار بطاقة الائتمان التى نسيها فى السيارة ، لكن العامل يرفض برغم الحاح الشاب وتوسلاته • فيضطر الشاب الى عرض ساعته الثمينة على العامل ثمنا لكمية وقود قليلة تسمح للسيارة بالسير حتى المحطة ، لكن العامل يعتذر • فيضطر الشاب الى عرض نظارته الثمينة ولكن للمرة الثانية يرفض العامل العرض • ولما لم يكن لدى الشاب شىء آخر يبيعه أو يرهنه فقد انصرف من المحطة يسير على مهل كسير البال حزينا • لكن فجأة يناديه العامل فيهرع اليه ليقدم ساعته ونظارته ، لكن العامل يعتذر ويشير الى بنطلون الشاب بما يفهم

منه أنه يريد شراءه . يندهش الشاب لكنه يدرك أنه لا يملك خيارا آخر فينزوى وراء المحطة ويخلع بنطلونه ويقدمه للعامل الذى يمده بما يريد من وقود . ويعود الشاب بملابسه الداخلية الى فتاته التى تنطلق ضـــاحكة فى حين نرى العـــامل سعيدا بغنيمته : البنطـــلون .

هكذا يوظف الأمريكيون المبالغة فى خدمة الاعلان من خلال تسلية المتفرج بتمثيلية قصيرة والترفيه عنه بعيدا عن الكلمات الموجهة مباشرة الى المتفرج كما لو كانت حكمة أو أمرا أو عظة . فهذا الاعلان عن البنطلونات بلا كلمة واحدة باستثناء كلمات الأغنية التى تتـــكرر فى آخر الاعـــلان حين تظهر فقـــط « ماركة » البنطـــلون !!

لكن المبالغة أحيانا تصل الى درجة الفحش عندما نرى فى أحد الاعلانات زوجا يعود فجأة الى بيته ليرى زوجته فى أحضان رجل آخر فيصرخ فيها قائلا :

ــ هل هذا وقته ؟! أنت هنا فى حين يباع الآن الأثاث الجديد فى الجمعية التعاونية ؟!

تترك الزوجة صديقها لتقول للزوج فى غضب :

ــ لكنه ليس ماركة كذا !!

ثم تعود الى أحضان صديقها !!

هذا عن جنوح المبالغة فى مجال الاعلانات التجارية التى يمكن أن تدوس القيم الدينية والأخلاقية فى سبيل التلاعب بعقل الزبون وغرائزه الحسية . وهى ظاهرة تفشت فى مجال الصورة المرئية والكلمة المسموعة ، أما فى مجال الكلمة المكتوبة والمنشورة فقد

شهدت الصحافة والأدب على وجه الخصوص كما من المبالغات اللفظية والمعنوية فى فترة الحرب العالمية الأولى بهدف اثارة الحماس من أجل القضايا المثارة وسط خضم المعارك الطاحنة . ويبدو أن هذه الظاهرة كانت السبب في ظهور مدرسة النقد الجديد فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، والتى غيرت مفهوم البلاغة الذى كان سائدا فى أوروبا لعدة قرون ، والذى حدد البلاغة بأنها التعبير الصادق عن احساس صادق ، أى أن الأسلوب البليغ هو الأسلوب الذى يعبر تعبيرا صادقا عن شخصية الكاتب . فقد قال ت. س. اليوت في عام ١٩١٩ ان البلاغة ليست تعبيرا عن احساس صادق مهما بلغ الاحساس أو التعبير من الصدق . كما أنه ليس تعبيرا عن شخصية الفنان . فالفنان لا يبدع فنا عظيما بمحاولته التعبير عن شخصيته تعبيرا متعمدا مباشرا ، بل يعبر عن هذه الشخصية بطريق غير مباشر عندما يركز جهده فى استخدام الكلمات والمعانى فى ابداع شيء محدد ، وكلما ازداد انفصال شخصيته عن عقله المبدع ، ازداد نضج الفنان وقدرته البلاغية على تفهم المشاعر المختلفة التى هى مادة الفن ، وعلى احالة الكلمات والمعانى الى شيء جديد هو العمل الفنى . أى أن التعبير بالكلمة يجب أن يكون معادلا موضوعيا للموضوع بحيث يمنحه شخصيته المتميزة فيتحول الى عمل فنى يمكن التعرف عليه بسهولة وسط الأعمال الفنية الأخرى التى تنتمى الى نفس مجاله .

فالاحساس لا يصل بصدق من خلال التغيير المبالغ عنه ، لأن البلاغة ــ فى نظر النقاد المحدثين ــ تكمن فى ابداع الأديب لمعادل موضوعى للاحساس الذى يرغب فى التعبير عنه ، أى أن يبدع الفنان شيئا يجسد الاحساس ويعادله معادلة كاملة فلا يزيد أو ينقص عنه ، حتى اذا ما اكتمل ابداع هذا الشيء ، أو هذا المعادل الموضوعى ، استطاع أن يثير فى القارىء الاحساس الذى يهدف الى اثارته دون استخدام ألفاظ طنانة أو نبرة عالية أو غير ذلك من أدوات المبالغة التقليدية .

ونلاحظ أن هذا المفهوم الجديد للنقد ليس الا تطويرا للمفهوم القديم الذى وضعه العرب للبلاغة عندما وصفوها بأنها مراعاة الكلام لمقتضى الحال . فالبلاغة فن اعتبره النقد الحديث شرطا لا غنى عنه فى تشكيل أى عمل فنى : انها قدرة الأديب على استخدام عمله فى استحداث طاقات تعبيرية جديدة لا تتأتى للغة التقريرية المباشرة، وذلك من خلال اضفاء وظائف جديدة على الكلمات ذاتها سواء بالنسبة للمحسنات البديعية أو اللفظية ، أو بالنسبة للقدرة على تجسيد المواقف وتطوير الشخصيات واثارة الانفعالات ثم تنظيمها تدريجا بحيث يشعر القارىء أو المتفرج فى نهاية العمل بأن أفكاره وأحاسيسه قد أصبحت أكثر اتساقا مع نفسه ومع الآخرين فى آن واحد .

أما كل أساليب المبالغة فتعتمد أساسا على الكلمات التقريرية المباشرة . قد يكون تأثيرها عميقا فى اللحظة الراهنة ، ومع ذلك فانه يزول بزوالها لأنه لم يتحول الى تجربة نفسية ذاتية للمتلقى ، مثل التجربة التى يمر بها فى مواجهة الأعمال الفنية العظيمة . بل ان المشكلة الحقيقية فى المبالغة تكمن فى أنها تفقد كل تأثير وفاعلية لها مع التكرار ، ذلك أن المواقف التى قد تحتاج الى المبالغة فى حياتنا ، مواقف قليلة الى حد الندرة . ولهذا نلاحظ أن تأثير الأديب الذى يلجأ دائما الى المبالغات الطنانة يكاد يكون منعدما ، بل وينعدم تماما بمرور الوقت ، أما الأديب الذى يوظف البلاغة الرصينة فهو الذى يدخل التراث الأدبى من أوسع أبوابه .

ولكى ندرك الفرق الحاسم بين البلاغة والمبالغة يمكننا أن نقارن بين الأدب الذى يصف بطله – فى رواية مثلا – بأنه كان فى تلك اللحظة أسعد انسان على وجه البسيطة ، وبين أديب آخر يصف بطله فى موقف مشابه من خلال التلاعب بالرموز والخلفيات الوصفية التى تجسد بالفعل سعادته . فهناك الشمس والحدائق

والزهور والبلابل المغردة وغير ذلك من الصور والرموز التى لاينضب معينها أمام الأديب الحق ٠

هكذا تخيب أسلحة المبالغة فى الاعلام والأدب ، كما تخيب أيضا فى السـياسة ٠ ولذلك نجد أن الساسة الذين لجأوا الى المبالغة فى خطبهم وتصريحاتهم ، انتهى أثرهم بمجرد خروجهم من مناصبهم ٠ أما الساسة الذين يقيمون سياستهم على منطق العقل ونور الفكر ، فان بلاغتهم الرصينة ترددها الأجيال بعدهم ٠

وأحيانا يفصل بين المبالغة والبلاغة خيط رفيع ، ولا مانع من أن تكون المبالغة استثناء والبلاغة قاعدة ، أما اذا انقلبت الآية فان محترف المبالغة سيكون أول من يدفع ثمن مبالغته ٠

الفصل السادس

الكلمة بين التنفيذ والتنفيس

برغم شرف الكلمة الذى ضحى من أجـله الكثيرون عبر العصور ، فقد ظلت وسيلة الى غاية أبعد منها ، وليست غاية فى حد ذاتها بأية حال من الأحوال · ولا شك أن حياتنا تقيس كل الأشياء بقيمتها العملية · ونحن مهما برعنا فى استخدام الكلمات ، ومهما تحاورنا وتجادلنا وعبرنا عن أفكارنا وآرائنا بمنتهى الدقة والموضوعية فان العبرة فى النهاية بالمحصلة الفعلية لكل هذه البراعة فى الحوار · وهذا المقياس ينطبق أول ما ينطبق على أهداف الكلمة التى تتعدى الحدود التقليدية لحرية الرأى والتعبير دون خوف أو حساسية · فاذا كانت حرية الكلمة هى مجرد التعبير الحر عن الرأى فانها فى هذه الحالة تتحول الى أداة للتنفيس أو الامتصاص بحيث تقف عند هذه الحدود فقط · وبذلك ليس ثمـة فرق بين حرية الكلمة وبين التعبير التلقائى الحر الذى يقوم به المريض فى حضور المحلل النفسانى الذى يعتمد فى وظيفته العملية على اتاحة فرصة التنفيس لمريضه حتى يرفع الغطاء عن مكبوتاته التى تعتمل داخله بحيث يصبح التخلص منها هو الغاية الأخيرة لحرية التعبير بالكلمـة ·

أما بالنسبة لحرية الكلمة فى المجتمع ككل فيجب ألا تقف عند حدود التنفيس • وانما تقاس قيمتها بنتائجها العملية الملموسة فى نهاية الأمر • بمعنى أنه لابد أن تتحول حرية الكلمة والتعبير الى طاقة فعلية تنير الطريق الصحى والصحيح الذى يتعين على المجتمع أن يسلكه ، والى رفاهية مادية ملموسة بالنسبة للجميع فلا يتركز الأمر فى مجرد الحديث أو الحوار أو الجدل أو الخطابة ، والا تحولت حرية الكلمةالى مجرد مناقشات بيزنطية تدور داخل دائرتها المفرغة المغـــلقة •

ومن أخطر العوامل التى تهدد حرية الكلمة وتحولها الى مجرد ثغرة للتنفيس عن البخار المكبوت ، تبدو أمامنـــا أجهزة الادارة البيروقراطية الراسخة بكل ذيولها ورواسبها وخلفياتهـا ولوائحها وملفاتها • فالبيروقراطية بطبيعتها لا تخشى أية ظاهرة اجتماعية أو تحول سياسى أو انطلاق اقتصـــادى جديد طالما أن مثل هذه الظواهر أو التحولات أو الانطلاقات لا تمسها من بعيد أو قريب فهى لا تخاف من حرية الكلمة والتعبير طالما أنها تملك الحرية المطلقة فى حرية الحركة والتنفيذ • أى على طريقة « دع الآخرين يتكلمون كما يشـــاءون طالما أننا نملك نفس الحق ولـــكن فى أن نعمل ما نشـــاء » •

لذلك تتربص البيروقراطية دائما بحرية الكلمة بهدف القضاء عليها عندما تسنح الفرصة أو تحويلها الى أداة للتنفيس عن مراحل الرأى المكبوت دون مخاوف من أن تصبح طاقة دافعة للعمل الايجابى المثمر • أما اذا تحولت الى التنفيذ الفعلى ، فان البيروقراطية تشهر كل الأسـلحة المباشرة وغير المبـاشرة فى وجهها حتى تقبع حرية الكلمة فى عقر دارها ، وتلزم حدودها الرسمية والشكلية • وبذلك تظل القضية قاصرة على الرأى والرأى الآخر اللذين يسيران فى قناتين متوازيتين منفصلتين دون أى أمل فى لقاء ايجابى مثمر يتولد

عنه الرأى الثالث الذى يبلور الرغبة العامة ويلمس الوجدان القومى لكل فئات الأمة .

وتكمن الخطورة فى أن هذه الفئات لابد وأن تفقد الثقة فى الجدوى الفعلية لحرية الكلمة عندما ترى أنها لا تزيد عن حدود الحروف التى كتبت بها ، أو الألفاظ التى نطقت بها . ومن ثم تبرز ضرورة ايجاد المنهج العملى والعلمى الذى يحول حرية الكلمة الى استراتيجية تطبيقية تدفع بالمجتمع الى آفاق جديدة من مستوى المعيشة الراقى سواء بالنسبة للغذاء أو الملبس أو المسكن أو العلاج أو التعليم وغير ذلك من ضرورات الحياة الانسانية الكريمة ، أى أن حرية الكلمـــة ليست على موجات الأثير أو على صفحات الصـــحف والمجلات أو فى قاعات البرلمان ، بقدر ما هى كامنة فيما يحصل عليه المواطن فعلا فى حياته اليومية من خير ورفاهية .

وخطورة الجهاز البيروقراطى تكمن فى عدم وجود شخص بالذات يمكن أن توجه اليه تهمة التعطيل أو التسويف أو التأجيل . فالموظف الكبير يختفى وراء الموظف الصـــغير ، والصغير يحتمى بالكبير ، والاثنان يتسلحان باللوائح ويغطيان تحركاتهما بالقوانين والبنود التى غالبا ما يعجز المواطن العادى عن تفسيرها لصالحه برغم كل مظاهر حرية الكلمة المحيطة به . فمثلا تفرد كل الصحف والمجلات بابا ثابتا لبريد القراء حتى يعبروا فيه عن الســـلبيات والعقبات التى تصور حياتهم اليومية . لكن من النادر وجود صدى فعلى لمثل هذه الشكاوى من المسئولين على طريقة « دعهم يتكلمون طالما أننا نملك حرية العمل » . بل ان الوزير نفسه قبل أن يتسلم مقاليد وزارته ، يظل ينادى بكذا وكذا ويطالب بتطبيق كيت وكيت والحماس يتفجر منه رغبة فى تغييرات جذرية وتطورات ثورية . لكن بمجرد أن يتســلم مقاليد الوزارة يفاجأ بالسدود العالية من الطبقات المتراكمة ، والملفات المتراصة ، والتوقيعات المتسلسلة ،

واللجان المنعقدة ، والأقسام الرئيسية ، والادارات الفرعية ... الخ من تسلسل الهـــرم البيروقراطى الذى يجلس الوزير على قمته وعندما يصل القرار الوزارى الى قاعدة الهرم يكون قد سقط عند السفح بلا حراك .

كذلك فان الحياة الحزبية الصحيحة لا تعنى البراعة فى التلاعب بالألفاظ ، والتفوق فى فنون الجدل والمناظرة بين الأطراف المتنافسة أو المتعارضة فى الساحة السياسية لكسب أكبر عدد ممكن من المؤيدين ، وانما تكمن القضية برمتها فى تطبيق قوانين العلم الحديث على الحياة العملية . وأى تجاهل لهذه القوانين يحول الجدل المنطقى الى كلمات جوفاء ، ومناقشات بيزنطية ، وأصوات لا معنى لها . فالأمم لا تحقق وجودها بالكلام الرنان السهل والخطب العصماء الفصيحة ، فقد ولى هذا العهد وأصبح الناس يستمعون فقط لصوت العقل والعمل وحده . لذلك فالمقياس الوحيد الذى يمكن أن نقيس به صلاحية أى حزب سياسى يكمن فى الأعمال التى ينجزها بالفعل وليست فى الأقوال التى ينشرها ذات اليمين وذات اليســـار .

ان حرية الكلمة لا تعنى الاقتصار على المجال النظرى المريح والابتعاد عن الخوض فى الميدان العملى المرهق . فالأمم لا تبنى بالأقوال ، لأنها تنهض على الأعمال الايجابية المثمرة . أما الاكتفاء بمعسول الكلام وحلو المنطق ، ومتابعة أى طرف سيقهر الطرف الآخر بمنطقه المتماسك الصارم ، فهذه من سمات أهل بيزنطة الذين كانوا يتجادلون عن أيهما خلق أولا : البيضة أم الكتكوت ؟! فى حين كان العدو يدق أبواب بلادهم ! ما الفائدة اذن من التلاعب بالكلمات والألفاظ والأفكار دون المســاس بالمشــكلات والقضــايا الحقيقية التى تمس مصير الأمة ؟!

ولذلك فان المعارضة السياسية مسئولية وليست بطولة ، خاصة عندما تكون حرية الكلمة متاحة . فالمعارضة لا تنهض على مبدأ « خالف تعرف » لأنه مبدأ طفولى غير ناضج يؤدى بطبيعته الى المهاترات والتشنجات التى قد لا تخطر على بال أحد . فهناك بون شاسع بين المعارضة الفكرية الايجابية البناءة والاستعراض الجدلى السلبى الذى يقنع بأقوى الألفاظ كفاية فى حد ذاتها ، بين حمل المسئولية وحب الظهور ، بين الطريق المنطلق الى المستقبل والدائرة المفرغة المغلقة .

ولا شـــك فان شخصية المعارض من أجل المعارضـــة فقط شخصية مثيرة للضحك والسخرية بل للرثاء وذلك فى البلاد التى تتمتع بحرية الكلمة التى تحفظ للمواطن أمنه وكيانه وكرامته ، والتى تمنحه فرصة التعبير الحر عن رأيه دون خوف من أذى أو ارهاب أو بطش . فأين البطولة فى تقديم الرأى الآخر أو الاتجاه المخالف ؟! ان المعارضة تلبس أثواب البطولة فقط فى الدول ذات النظم الشمولية والديكتاتورية . ذلك أن الذى يجرؤ على معارضة أو مخالفة الاتجاه الشمولى المسيطر يعرض نفسه وأسرته ومستقبله للاعتقال أو السجن أو النفى أو البطش أو الموت ، فهم يعتبرون منشـــقين وبالتالى تنطبق عليهم القوانين التى يحاكم بمقتضـــاها الخارجون على المجتمع والقانون . أما فى البلاد التى تقدس حقوق الانسان فان المعارضة تتحول الى مسئولية علمية عملية بحيث تساهم فى الاضافة والتخطيط والبناء ودفع عجلة الانتاج والتطور ، لا أن تهاجم بقنابل الألفاظ المتفجرة ما تبنية الحكومة لمجرد أنها خارج الحكم والسلطة .

فى زمن حرية الكلمة لا توجد ثمة بطـــولة فى ابداء الرأى المعارض . فالمعارض الذى يستعرض بطولته الوهمية الجوفاء أمام الآخرين يشبه تماما شخصية دون كيشوت الذى انطلق لمصارعة

طواحين الهواء لأن خياله المريض أوحى اليه بأنها مردة أو عمالقة ، وعليه أن يحمل قدره ويصارعها بسيفه من أجل انقاذ البشرية المعذبة والمهددة . فصاحب الرأي الآخر يستطيع أن يعبر عن رأيه ما شاء الله له التعبير وهو متأكد تماما أن شيئا لن يمس أمنه وحياته من قريب أو بعيد .

هنا يكمن دور الكلمة المعارضة كمسئولية قومية تساند وتدعم وتوجه وتختلف اذا رأت أن هناك ما يدعو الى الخلاف أو الاختلاف من أجل المصلحة القومية العليا . فهذه المصلحة هى الاطار الذى لابد أن تتحرك داخله كل تيارات الرأى العام . ونحن نعيش فى عصر العلم بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان . وأهم ما يميز العلم هو بحثه المتجرد عن الحقيقة الموضوعية أينما كانت وحيثما وجدت ، حتى لو لم تكن متمشية مع الأهواء الذاتية والأغراض الشخصية الطارئة . وهذا المفهوم العلمى ينطبق على الحكومة كما ينطبق بنفس الدرجة على المعارضة . وهذه الحقيقة الموضوعية تتمثل فى المصلحة القومية العليا ، وهى حقيقة لا يختلف حولها اثنان فى دول الحضارة المعاصرة . قد يختلف طريق الوصول اليها ، وقد تختلف النظرة اليها بحكم قوانين النسبية التى تتحكم فى حياتنا . لكن جوهرها يظل واحدا فى نهاية الأمر طالما أن النيات خالصة ، وطالما أن التفكير موضوعى وعلمى ، وطالما أن حب الوطن هو رائد الجميع . فالاختلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية . وكل من يرفع لواء الرأى الآخر عليه أن يدرك أن الصمت من ذهب اذا كانت الحكومة تطبق المنهج العلمى السليم فى تنفيذها للأهداف القومية العليا . بل على صاحب الرأى الآخر – فى هذه الحالة – أن يساند وأن يقدم كل المساعدات الممكنة حتى تنطلق السفينة بأقصى سرعتها . ان هذا لا يعنى حجرا على حرية الكلمة وابداء الرأى المعارض ، وانما يعنى أن يكون الرأى موضوعيا وعلميا قبل أن يكون رأيا معارضا ومخالفا .

وإذا كان من المقرر أن حرية الكلمة مكفولة ، ولكل انسان حرية التعبير عن رأيه ونشره بالقول أو بالكتابة أو بالتصوير أو غير ذلك من وسائل ابداء الرأى الحر ، وأن النقد الذاتى والبناء ضمان لسلامة الكيان الوطنى ، الا أنه من المقرر كذلك أن تكون حرية الكلمة فى حدود الدستور والقانون : ان حرية الكلمة لا تعنى غياب القانون ، كما أن سيادة القانون لا تشكل حجرا على حرية الكلمة . فالحرية جوهر والقانون سياج من حولها يحميها ، ويحمى ممارسيها، كما يحمى القيم والمقومات الأساسية للمجتمع .

ومهما كان الاختلاف حول مفهوم المصلحة القومية العليا ، فان منـــاخ الحرية الناضجة المســئولة قادر على أن يبت ويحســم بما يضمن حرية الكلمة لكل المواطنين فى ظل سيادة القانون . فذلك وحده هو الذى يشكل خطا فاصلا بين الحق والباطل ، بين الأصالة والزيف ولا شك فان المعارضة السياسية المتحضرة يمكن أن تمارس بالقدر الذى يتكون به الرأى العام بحرية ، ويعبر عن نفسه تعبيرا صادقا كاملا . وهذه الحرية فى التعبير والتصرف يجب أن تكون قائمـــة على ادراك جميع الحقائق المتعلقة بالقضـــايا ذات النفع العام . بذلك يكون تصديق الرأى العام على القانون تصديقا واقعيا وعمليا . ونحن نعلم أنه بدون مساندة الرأى العام للقانون فلن تصبح له أية سيادة من أى نوع لأنه سيكون فى هذه الحالة حبرا على ورق . فالرأى العام هو التعبير الصادق عن المصلحة القومية العليا ، وهو النسيج الذى تصنع من مادته القوانين فى المجتمع الديمقراطى السليم . وكلما كانت حرية الكلمة ناضجة ، زادت خصوبة هذا النسيج وتنوع من أجل أفكار خلاقة جديدة .

وفى الدول المتحضرة تتيح حرية الكلمة الناضجة تفـــاعلا عضويا بين الحكومة والمعارضة . فكلاهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به من خلال الأخذ والعطاء المثمرين . فالمعارضة حين تحمل مسئوليتها

القومية وتحدد موقفها الوطنى فانها تؤثر فى الجماهير كما تؤثر فى الحكومة ٠ وفى الوقت نفسه تحس نبض الجماهير من خلال مدى التجاوب ودرجاته معها ٠ لذلك تتأثر المعارضة بميول واتجاهات الجماهير وبالتالى فانها تعدل سياستها وفقا لمتطلبات الرأى العام ٠ أما المعارضة المغرضة أو الغبية أو الجاهلة فتحاول فرض سياستها على الحكومة وعلى الرأى العام وذلك بمحاولة التأثير فيهما دون التأثر بهما ٠ أى أن العلاقة هنا غير عضوية بمعنى أنها من طرف واحد فقط ٠ والمعارضة الوطنية الموضوعية الناضجة التى تدخل تغييرات حيوية وضرورية فى المجتمع انما تعتمد على الرأى العام الموجود بالفعل أو المتوقع مستقبلا ٠ وهذا النوع من المعارضة ذو بصيرة ثاقبة ، ونظرة عميقة تعرف مقدما أن هذه التغييرات ستلاقى تأييدا من الجمهور طالما أن حرية الكلمة المتاحة تمكنه من وضع يده على نبضـــه الحقيقى ٠ وبذلك تتحول الكلمة من أداة للتنفيس والتناظر الجدلى العقيم الى اداة للتنفيذ والتطبيق والتطوير والتقدم نحو مستقبل أفضل ٠

أعراض الانفصـــام الفـكرى

من المعروف أن الفكر الانسانى عبـــارة عن نسيج عضــوى متلاحم من عناصر الفكر القومى فى عصوره المتتالية وبقاعة المختلفة . لكن هناك شروطا يجب أن تتوافر حتى يســهم الفكر القومى فى منطقة ما بأكبر قدر ممكن فى بناء الفكر الانسانى ، وحتى يكتسب صفة العالمية .

من هذه الشروط نوعية الاسهام الحضـــارى الذى تقوم به المنطقة ، ومدى الاتساق والأصالة والعمق الذى يتميز به فكرها ، ومدى اشعاعها على الدائرة المحيطة بها وتفاعلهـا معهـا ، وقوتهـا الاقتصــادية والسياســـية والاجتماعية .. الخ من عناصر القوة الحضارية المعاصرة .

لكننـا فى العـــالم العربى بصفة عامة نبـدو وكأننا نجهل أو نتجاهل هذه الشروط ، وندخل فى مناقشات بيزنطية ننقســم فيها الى أكثر من فريق أو أكثر من قبيلة ، ذلك أن التفكير القبــلى لايزال يحكم فكرنا ، ويمتشق كل فريق حسامه ليدافع عما يعتقد

أنه معركة المصير ، واذ به في الواقع يحارب طواحين الهواء مثلما فعل دون كيشوت في فروسيته الرعناء ٠

فهناك من ينادي بالانغلاق على الذات ورفض أي تيـــار يفد علينا من خارج الحدود ، وهناك من ينادي بالانفتـــاح ويـرى في تراثنا مجرد أكفان وتوابيت وكتب صفراء وهناك من يرتدي رداء العقل والمنطق والحكمة ويطالب بالجمع بين الأصـــالة والمعاصرة ، لكنه يكتفي بالمطالبة ولايفعل شيئا في هذا المضمار ، اذ أن الألفاظ الضخمة الرنانة كثيرا ما تشبعنا وتقنع بها ٠

وفي خضم هذه المعـــارك الوهميـــة التي لاتخرج عن حدود الكلام الذي كتبت به نصاب بالانفصام الفكري الناتج عن غيـــاب العلاقة العضـــوية بين فكرنا القومي والفكر العـــالمي المعاصر ٠ فمن البديهيات التي يجب ألا نتجادل حولهـــا أن الفكر عملة لهـــا وجهان : الوجه القومي المحلي والوجه الانساني العالمي ٠

ان الطبيعة الانسانية لاتختلف من منطقة لأخـــرى الا على مستوى المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، أما جوهرها فتقريبـــا واحـــد ٠ ولذلك فالانسان العربي لا يمكن أن ينفصل عن انسان العصر ، ومع ذلك يظل عربيـــا ٠ وعلى الرغـــم من هذه البديهيات نجد من ينذر كل وقته وجهده لتعريف ما هو الانسان العربي ، وما هو انسان العصر ؟!!

وتنعكس هذه المناقشات البيزنطية على فكرنا المعاصر بحيث ينحصر مجهود العاملين في مجال التراث الفكري على تفسير التفسير وشرح المتون والهوامش دون القاء نظرة على الفكر العالمي المعاصر ٠ هذا في الوقت الذي تسعى فيه القبيلة الأخرى لتقليد كل التيارات الواردة من الخارج لدرجة أننا في الستينيات وجدنا من يكتب

مسرح العبث فى مصر برغـــم أنه نتيجة طبيعيــة لتفاعلات الفكر والمسرح الغربى على مر تاريخه الطويل ، فى حين أن مسرحنا المصرى الحقيقى لايزيد عمره عن قرن واحد · وهكذا يقع فكرنا جثة لاحراك فيها بين التقاليد والتقليد ·

كل هذا التخبط لابد أن يفقد فكرنا شخصيته القومية المتميزة ويصيبه بالانفصام الحاد · واذا كنـــا لم نصـــل بعد الى قاعدة موضوعية صلبة كى ينطلق منها فكرنا ، فكيف نتوقع أن ينطلق فكرنا الى المجال العالمى ؟! واذا كنا لانزال نختلف حول تعريف ماهية فكرنا ، فهل نتوقع من عالمنا المعاصر أن يصـــل الى اتفـاق بشأنها ؟! وبعد ذلك يتقبل فكرنا وينشره ســـواء بالترجمـــة أو بالدراسة أو بالتبادل الثقافى ؟!

ان عالمنـا المعـــاصر لن يفهم تراثنـا الا اذا قدمناه فى ثوب دراسى تحليلى يبرز أوجه الاختلاف أو التشابه بينه وبين عناصر التراث الانسانى الأخرى ، والأسباب الموضوعية التى قامت عليها هذه المقارنة · فالمفكر الفرنسى ـ مثلا ـ لن يتحمس لكاتب عربى يقلده فى فكره وأسلوبه ، ذلك أن الناس تهتم دائما بالأصـــل وتلقى بالصورة جانبا ، كما أن المفكر الأجنبى لن يفيد مفكرا عربيا ينظر اليه فى شك وريبة وتوجس بل وعداء غير موضوعى ناتج عن الشعور بالنقص أو عن جنون العظمة ·

اننا قبل أن نسعى الى عالمية فكرنا ، يجب علينا أن نتخلص أولا من العقد النفسية المتحكمة فى فكرنا وسلوكنا · فليست كل قضية تثير فينا الحساسيات التى لا لزوم لها ، وليست كل معركة هى معركة المصير حتى نجعل من أنفسنا أبطالا أو شهداء · ذلك أنه بين الأبيض والأسود تتدرج الألوان ، أما أننـــا لانرى ســـوى الأبيض والأسود ، أو نصاب بعمى الألوان فهذه مشكلتنـــا نحن دون ســـوانا ·

أخلاقيـات المثقفين

لاجدال فى أن الثقافة ليست مجـــرد المعلومات التى يحشو بها الانسان عقله ، ولكنها حياة متكاملة لها جانبها النظرى والعملى ، ولها بعدها الفكرى والسلوكى ٠ ولذلك فان نظرة المثقف الى الحياة وسلوكه فى المجتمع يختلفان اختلافا بينا عن الانسان الذى لم ينل حظه من الثقافة ٠

واذا كان مصدر الثقافة يتمثل بشكل محـــدد فى الكتب وغيرها من أدوات المعرفة ، فان المثقف يستمد من حيـــاته اليومية وتجاربه العملية مصادر أخرى للمعرفة ٠ ومن حصـــيلة التفاعل بين الثقافة النظرية والثقافة العملية تتكون رؤيا شبه شاملة لدى المثقف نحو الحياة والانسان والمجتمع والكون ٠ وهى رؤيا تشكل فكره وسلوكه بحيث يتحول الفكر والسلوك الى وجهين لعملة واحدة هى : الثقافة الانسانية البناءة والمطورة للحياة ٠

هذا الجانب السلوكى أو العملى أو الأخـلاقى فى حياتنـــا الثقافية ، لايلتفت اليه الكثيرون فى العالم العربى على أساس أن

المثقف هو من يعرف أكثر وكفى • وكان نتيجة نظرتنا القاصرة هذه أن زخر الميدان الثقافى العربى بالصراعات والأحقـاد بين مختلف الأطراف المشكلة لكياننا الثقافى •

فقد انفصلت المعرفة عن السلوك ، والثقافة عن الأخـــلاق ، برغم أن الثقافة تحتوى فى صميمها على هذا العنصر الأخلاقى الذى بدونه يتحول المثقف الى فاوست جديد ، يبيع روحه للشيطان من أجل المعرفة ، أيا كانت هذه المعرفة • وقد يبيع نفسه من أجـــل مصلحة شخصية وذلك طمعا فى ثواب أو خوفا من عقاب •

ولاشك أن نظرة الناس العاديين تجـــاه المثقفين تتشـــكل طبقا للمثل الذى يضربه هؤلاء المثقفون لهم • فاذا كان مثلا سيئا فسوف ينصرف عنهم الناس أو يسير على نهجه البعض الآخر وبذلك تتحول الثقافة الى عنصر مدمر وهى منه براء • واذا كان مثلا طيبا فان الثقافة تتحول الى شعلة تهدى الناس الى طريق الخير والتقدم والازدهار والحضارة • ومن ثم تنتشر الثقافة لأن عدواها ستنتقل من شخص لآخر نظرا لوجود القدوة الحسنة •

وطبقا لهذا المعيار فاننـــا نستطيع القول بأنه اذا ارتفـــع المستوى الثقافى للمجتمع ، ارتفع مستواه الأخـــلاقى بالتـــالى • فالمثقف الحق يشعر أن هموم عصره ومجتمعه هى همومه الشخصية ، وعليـــه أن يشارك بعلمه وفكره وثقـافته فى التخلص منها بقدر الامكان ، وافساح الطريق لآمال وتطلعات جديدة •

كذلك يرى المثقف الناضج أن الجهل وضيق الأفق والتعصب والتزمت من أخصب البيئات التى يرتع فيها الشر والأخلاقيات التى تتنافى مع الكيان الانسانى السليم • ففى حيـــاة الظلام يمكن أن ترتكب كل الموبقات •

واذا كانت الثقافة هى النور الذى يضىء للانسان طريقه ، فلابد أن يؤدى هذا الطريق الى تحقيق القيم الحضارية التى تهفو اليها النفوس البشرية منذ فجر الوعى الانسانى • وهذا يفسر لنا الدور الذى لعبه الساحر فى عصـور ما قبل التاريخ ، ثم الدور الذى لعبه الكاهن وبعـده الشـاعر فى تاريخ القبائل والشعوب القديمـة •

فقد تلقى المجتمع النصيحة والحكمة والمشورة على أيدى هؤلاء الذين لعبوا دور المثقف فى مجتمعاتهم • أى أن المثقف على اختلاف الأدوار التى لعبها على مر العصـور ـ كان مركز الثقـل الفكرى والحضارى فى مجتمعه • ومن الطبيعى اذا اختل مركز الثقل فان كل من يدور فى فلكه لابد أن يفقـد التوازن والرؤية الصحيحة الواعية للأشياء !

وبحكم أن البشر يحكمون على بعضهم بعضـا بنوعية النتيجة العملية لسلوكهم ، فمن باب أولى يكون حكمهم على المثقف الذى قد لايستوعب البعض فلسفته الثقافية ، لكنهـم قادرون فى الوقت نفسـه على استيعاب معنى سلوكياته وأخلاقياته تماما ، اذ انهـا الجانب المادى الملموس الذى يمكن للانسان أن يدركه مهما كانت ثقافته ضحلة أو حتى منعدمة • وبحكم أن المثقف غالبا ما يكون فى دائرة الضوء أو فى دائرة الوعى عند الآخـرين ، فان حـركاته وسكناته ترصد بصفة مستمرة ومتجددة ، بل ويحاسب عليها من أبسط الناس •

والظاهرة الغريبة فى العالم العربى أنه على الرغم من انتشار الأمية ، فان الوعى الحضارى والأخلاقى الذى ترسـب فى وجدان العربى منذ العصور الغابرة ، لايزال يؤثر فى سلوكه ويرشده الى سواء السبيل بأسلوب أقرب الى الأسلوب الغريزى العفوى التلقائى بل واللاواعى •

من هنا لعبت الثقافة المتوارثة والمكتسبة دورهـا في بنـاء الانسان العربي · صحيح ان لها سلبياتها وثغراتها ، لكن ايجابياتها مكنته ــ على مر العصـــور ــ من التفريق بين الغث والسمين ، بين الزيف والأصالة ، بين الجوهر والمظهر ·

ومن الواضح أن الثقافة جوهر وروح ومعنى قبل أن تكون شكلا ومظهرا · بل ان شكلها ومظهرها يتجليـان في سلوكيات المثقف وأخلاقياته ، وتتوقف قدرتهما على الاقناع ، على المدى الذى يقومان فيه بتجسيد قيم الثقافة ومعانيها ·

فلا خير فى مثقف يلتهم الكتب ويعيش فى بطونهـا ، ثم يعجز عن ترجمة ثقافته العميقة الى سلوك وقدوة أمام الآخـرين ، وكذلك لاخير فى مثقف يعتقد أن الثقافة الرفيعة لايمكن أن تنزل من برجهـا العاجى الى رجـل الشـارع · فالثقافة للجماهير وليست للأفراد · كذلك لاخير فى مثقف يتشدق بالمثـل العليـا والقيم الانسانية من واقع ثقافته ، ثم يفاجأ الناس بأنه يسلك فى اتجاه مضاد لها تماما ·

ان الجوهر الأخـلاقى فى الثقافة جزء عضوى لايتجزأ عن كيانها ، والمثقف الذى يتصور أو يتوهم أن فى امكانه تجاهل هذا الجوهر ، لايدرك أنه بهذا يخـرج نفسـه من كوكبة رواد الثقافة الذين شكلوا خريطة الفكر الانسانى عبر العصور ·

الاعلام العربى وتحديات المستقبل

لا شك أنه لا يوجد فى عالمنا المعاصر مكان للوحدات السياسية الصغيرة أو الكيانات الممزقة · ولقد أصبح من المحتم على المجتمعات النامية الحديثة ـ ومنها أمتنا العربية بمختلف أقطارها من الخليج الى المحيط ـ أن تتكاتف وتتعـاون من أجـل توحيـد الطاقات والامكانات من أجـل مستقبل أفضـــل ، وحتى يمكنهـا مواجهة المخططات الاستعمارية الحديثة التى تدبر لها وتحاول استنزاف ثرواتها بصفة خاصة ، فان الاستعمار المعاصر فضل أن يخلع الأقنعة العسكرية والسياسية ـ وان كان يستخدمها فى بعض الأحيـان بطريقة أو بأخرى ـ وأصبح الآن يرتدى أثواب الخبرات الاقتصادية والمساعدات المالية حتى يدخل من باب التعـاون الذى لا يستفيد فحسب بل يفيـد أيضـا · ومن ثم يقضى على الحساسيات القديمة المرتبطة بالضغوط السياسية والعسكرية ومناطق النفوذ المباشر ·

ومن الواضح أن الاعلام ـ كعلم حديث ـ يلعب دورا حيويا وحتميا فى توعية الشعوب والدول ، وخلق الرأى العام المستنير الكفيل بدحض كل المخططات الوافدة من خارج حدود الأمة سواء بأسلوب مباشر أو غير مباشر أو غير ذلك · لكن الخطورة تكمن فى

تخلف الخدمة الاعلامية فى الدول النامية اذا ما قورنت بمثيلتها فى الدول المتقدمة نتيجة لأن وسائل الاعلام فى معظم الدول الآخذة فى النمو ترتكز على دعائم فنيـــة محـدودة ، وذلك بالاضافة الى الصراعات التى تخوضها هذه الدول فيما بينها نتيجة جهود القوى العظمى التى تسعى من خارجها لبذر بذور الشقاق والصراع بين هذه الكيانات النامية حتى لا يشتد عودها وتقف منها موقف الند للند فى يوم من الأيام ٠

من هنا كانت حتمية الوحدة الاعلامية التى يجب أن تسعى اليها الدول النامية ، حتى تسد الفجوات المصطنعة فيما بينها ٠ فلابد من الاستمرار فى تنمية التعـاون الوثيق فى مجال تبـادل المعلومات والمعونات الفنية بين جميع الدول النامية ـ سواء على المستوى الثنائى أو الاقليمى ـ بغية قيام تعارف أفضل واتصال أوثق بين الشعوب والدول النامية ، ومن أجـل استيعاب أشمل لمتغيرات العصر ، مع العمل على القضاء على الهوة التى تفصل بين الدول المتقدمة والدول النامية ٠

وذلك كله لا يتأتى الا عن طريق تعـاون وسائل الاعـلام القومية بطريقة فعالة عن طريق تبادل واسع للمعلومات والخبرات الحديثة ، وبالتعاون فى مجال الاعداد المهنى للمراسلين والكوادر الفنية والصحفيين ، وبالحصول على أحـدث المعدات اللازمة التى يمكن تشغيلها بخبرات وطنية وقومية ٠ ونظرا لأن الاعلام يعتمد أساسا على الوعى القومى النـــابع من تربة الوطن ، فان أهميـة الأجهزة الفنية تأتى فى المرتبة التالية للنضوج الاعلامى ٠ ذلك أنه لا خير فى أجهزة اعلامية متقدمة فنيا ومتخلفة فكريا عن موكب العصر ٠

من أجل نضوج هذا الوعى القومى ، لابد من تعاون أجزاء الوطن الواحد الذى تربطه وحدة العقيدة واللغة والتاريخ والدم

والكفاح المشترك والمصير الواحد ، من أجل التصدى لوسائل الاعلام النشيطه والضخمه التى تستخدمها القوى العظمى للتأثير على عقل الانسان العربى وتخريبه ، ومن ثم تحطم معنوياته وتفقده الثقه بنفسه ، وذلك فى عالم لا يستطيع العيش فيه من فقد الثقة بنفسه وحاول أن يثق بالآخرين · ان الثقة بالآخرين تبدأ أولا بالثقة بالنفس ، والا تحولت الى تبعية فكرية فى عالم لا يعترف بوجود الأتبـــاع ·

وفى أعقاب هزيمة الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ أصبحت الوحدة الاعلامية العربية حتمية لا مفر منها · ففى أعقاب هذه الهزيمة المرة تكشف لكل العرب أن الاعلام المتشنج المسعور وغير المسئول بطبيعة الحال كان من أهم وأول الأسباب التى أدت الى هذه النكبة · فلم تكن له مهمة ـ سواء بقصد أو بغير قصد فان ذلك لا يهم طالما أن المحصلة النهائية واحدة ـ سوى خداع الشعب العربى فى الداخل وتشويه صورته فى الخارج · ومن خلال هذه التجربة المأسوية التى تجرعتها الأمة العربية حتى الثمالة ، ظهرت الحاجة الملحة الى منهج علمى وعملى فعال فى عصر تطورت فيه وسائل الاتصال وأساليب الاعلام ، وأصبحت فيه تشكل رأى رجل الشارع وفكره تشكيلا يتعدى حدود التأثير المؤقت ·

ويجب أن نسجل للاعلام العربى بلوغه قمة الوعى الحضارى فى أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ · فقد استطاع الاستفادة من دروس نكبة يونيو ١٩٦٧ ، وتخلص من معظم السلبيات التى مهدت المناخ السياسى والجو النفسى لهذه النكبة · فقد وضع الشعب العربى كله أمام مسئولياته التاريخية دون تهويل أو تهوين ، وبهذا ازداد الوعى القومى داخل الوطن العـربى ، وأشرقت صورة الانســان العربى خارجه مما جعل الرأى العـام العالمى يميل لأول مرة عن اقتناع حقيقى تجاه كفة الحق العربى · لذلك لم يكن الاعلام العربى

فى تلك الفترة الحاسمة على مستوى الموقف المصيرى فحسب ، بل ساهم بأسلحته من أجل تطوير هذا الموقف حتى يتيح للأمة العربية مزيدا من الفرص لاكتساب المزيد من الحقوق ٠

لكن الاعلام العربى — للأسف — لم يحتفظ بالقمة الحضارية التى بلغها فى أكتوبر ١٩٧٣ ، فعندما خمد تراب المعركة بدأت وسائل الاعلام العربية فى التقوقع الاقليمى مرة أخرى ٠ وهذا التقوقع لابد أن يؤدى فى النهاية الى تقطيع صلات الأخوة وأواصر التضامن ، وتتحول الخلافات الجانبية الى معارك مصيرية تجعل من جسد الأمة العربية أشلاء ممزقة ٠ وفى خضم هذه المعارك — التى لا يستفيد منها سوى العدو — ننسى ضرورة حشد كل الطاقات القومية لتصفية آثار العدوان الصهيونى ، واستعادة حقوق الشعب الفلسطينى فى أرضه وتقرير مصيره ، وتحرير الأجزاء المغتصبة من الوطن العربى ، وتوفير أسباب التنمية والازدهار والأمن القومى والاستقرار الحضارى ٠

أليست هذه أسبابا كافية بل وحتمية من أجل العمل على اقامة الوحدة الاعلامية التى نصبو اليها بشتى الوسائل ؟! ان أى اعلام لا يعمل من أجل هذه الأهداف المشتركة والمصيرية ، اعلام مدسوس على الأمة العربية من خارج حدودها ، وخير وسيلة لمجابهته تكمن فى الوحدة الاعلامية التى يتحتم على خبراء الاعلام العربى العمل من أجلها دون تأجيل أو تسويف ٠

ومن الواضح أن هناك عنصرين فى الاعلام العربى لا غنى لأحدهما عن الآخر ، لأنهما يشكلان وجهين لعملة واحدة : صورة الأمة العربية سواء فى عيون أبنائها أو فى عيون الآخرين ٠ هذان العنصران يتمثلان فى القومية والعالمية ، ذلك أن أهداف الأمة العربية ومتطلبات العمل الاعلامى تحتم الممارسة العلمية الواعية

على المستوى الداخلى والمستوى الخارجى فى آن واحد · وكلما كان الاعلام الداخلى أبعد ما يكون عن خداع الشعب العربى ، فان مهمة الاعلام الخارجى ستكون ميسورة وسلسة - الى حد كبير - فى مجال ابراز الصورة المشرقة للانسان العربى أمام العالم كله ·

على المستوى الداخلى القومى هناك حتميات لا يمكن للاعلام العربى أن يتجاهلها أو يتغاضى عنها · من هذه الحتميات الالتزام الدقيق بأحكام ميثاق التضامن العربى · وهذا الالتزام ليس التزاما معنويا وأدبيا فقط ، بل يجب وضعه موضع التنفيذ من خلال استراتيجية شاملة للأمة العربية كلها · وهذه الاستراتيجية الاعلامية تنهض على التركيز على وحدة الأهداف والتاريخ والمصير ، وتعميق الايمان بالوحدة العربية ، وتوعية الجماهير العربية بحقائق الوجود العربى ، وتحليل المراحل التى مرت بها القضية العربية تحليلا علميا موضوعيا منذ البدايات الأولى حتى يمكن التعرف على ملامح الشخصية العربية ، والقاء الأضواء الساطعة على قوى التدخل الاستعمارى والصهيونى ، والعمل على تحرير الأراضى العربية المحتلة واستعادة الحق الفلسطينى السليب ·

كذلك لابد للاعلام العربى من توعية الشعب العربى بأبعاد الكفاح من أجل التقدم الحضارى والازدهار الاقتصادى والتطور التكنولوجى والأصالة الفكرية والنهضة الثقافية والعدالة الانسانية· ولا يتأتى هذا الا من خلال ترسيخ المفاهيم الصحيحة للقومية العربية وتنقية التراث الحضارى العربى من كل الشوائب الدخيلة التى أضعفت من حيويته ، ونشر التفكير العلمى الذى يعد المقدمة الضرورية لاقامة البناء العلمى لمستقبل الأمة العربية كلها · وهذا البناء العلمى لا يكتسب الأصالة القومية الا اذا ارتبط بايمان الانسان العربى بالمقدسات والقيم الروحية التى تعد العمود الفقرى للحضارة العربية على مر عصورها المتعددة ، وخاصة المزدهرة منها·

من مهام الاعلام العربى الداخلى أيضا تعزيز ثقه الانسان العربى بامكانات الامة العربيه على أساس عملى واقعى بعيدا عن الشعارات البراقة والعبارات الطنانة . ولا شك ان الانجازات المادية العملية خير دليل اعلامى على كفاءة الانسان العربى الذى لا يهاب الانفتاح على الحضارة الانسانية من خلال التأثر بها والتأثير فيها . فلقد كانت الحضارة العربية تجسيدا حيا وتاريخيا لروح الأخوة الانسانية ، لذلك لم يكن هناك ثمة انفصال بين جوهر القيم العربية وروح ميثاق الأمم المتحدة والاعلان العالمى لحقوق الانسان . وعندما يتصدى العرب للتيارات والمبادىء التى تناهض معتقدات الشعب العربى وتراثه القومى ، فانهم يتصدون فى الوقت نفسه لكل ما يتنافى مع روح العدالة الانسانية .

هذا من جهة الاعلام العربى على المستوى الداخلى القومى ، أما على المستوى الخارجى العالمى فان دوره يتمثل فى التأكيد على أن الأمة العربية تؤمن ايمانا عمليا بحق الشعوب فى الاستقلال والأمن والحرية والاستقرار لذلك فهى تمد يدها الى كل شعوب الأرض بصرف النظر عن اختلاف الدين أو العقيدة أو الجنس أو أسلوب الحياة ، وذلك من أجل توفير أسباب الحرية والتقدم والسلام .

كما يجب أن يتيح الاعلام العربى للعالم المعاصر فرصة التعرف على الحضارة العربية التى حملت عبء الحضارة الانسانية فى أحلك العصور التى مرت بها البشرية . لذلك كان من الطبيعى للحضارة العربية أن تدعو للأخوة الانسانية على أساس العدل بين البشر ، وأن تنكر التعصب الأعمى وتناهض التمييز العنصرى بشتى أشكاله الاستعمارية والطائفية ، وخاصة أن الأمة العربية عانت على مر تاريخها الطويل من كل هذه المشاق والمحن التى تشوه جوهر الانسانية .

أما عن القضية الفلسطينية وتحرير الأجزاء المحتلة من الوطن العربى وكشف الطبيعة الاستعمارية للاحتلال الصهيونى ، فهذه كلها تشكل التحدى الحقيقى للاعلام العربى العالمى • فلابد من استخدام أحدث الوسائل السيكلوجية فى اقناع العالم كله بعدالة القضايا العربية ، وحتمية النضال العربى بصفته حركة قومية شاملة تهدف للتحرر والعدل والسلام واسترجاع أراض اغتصبت بالعدوان ، واستعادة حقوق الشعب الفلسطينى التى أهدرت برغم القرارات الدولية ومظاهرات التأييد العالمى • ان النضال العربى نضال من أجل السلام العالمى لأنه يسعى الى تفادى تكرار المآسى السابقة ، ويدافع عن حقوق الانسان بصرف النظر عن عنصرى الزمان والمكان •

وهناك مجال آخر يمكن للاعلام العربى أن يصول فيه ويجول اذا تسلح بأسلحة العلم الحديث • هذا المجال هو الاصرار على عروبة القدس ومنع اسرائيل من استمرارها فى العبث بحرمة الأماكن المقدسة متحدية فى ذلك قرارات الأمم المتحدة • كما يجب العمل على كشف التعصب العنصرى والدينى الذى تقوم عليه اسرائيل ، واضطهادها لعرب فلسطين ، وتحيزها ضد اليهود الشرقيين ذاتهم ، واتهامها لكل يهودى بالكفر والالحاد اذا لم يكن مؤمنا بالتهجير أو الهجرة اليها ، كما أنها تفسر العقيدة الدينية والتوراة طبقا لأهوائها السياسية وأطماعها التوسعية • ولذلك فان الأماكن المقدسة فى خطر طالما كانت تحت سيطرة اسرائيل ، فقد كانت هذه الأماكن أمانة فى عنق العرب حملوها على مر عصور التاريخ •

أما لعبة معاداة السامية التى تعتبر من هوايات اسرائيل المفضلة ، فلابد للاعلام العربى أن يرد عليها بحسم علمى وعملى حتى لا يترك المجال لاسرائيل التى تسعى لتلوين حقائق التاريخ طبقا

لمخططاتها السرية . فكيف يعادى العرب السامية فى حين أنهم أنقى أنواع الجنس السامى ؟! فى حين أن سامية اليهود أمر مشكوك فيه تاريخيا وأنثروبولوجيا نظرا للشتات الذى عاشوا فيه قرونا طويلة ، وامتزجوا فيها بالأجناس الأخرى . فلم يكن هناك «جيتو» قادر على الاحتفاظ بنقاء السلالات اليهودية طوال هذه الحقب والقرون ، بل كان « الجيتو » مجرد وهم اصطنعه اليهود لتبرير نقاء جنسهم . واذا كان العرب يعادون التعصب العنصرى فى اسرائيل فانهم كانوا يعادونه فى أماكن أخرى أيضا من العالم مثل جنوب أفريقيا ، فالمسألة مسألة مبدأ انسانى شرعى أولا وأخيرا .

كذلك يتحتم على الاعلام العربى – فى هذه المرحلة بالذات – أن يعرف العالم كله أن العرب لا يعتنقون مبدأ الحرب من أجل الحرب ، فهم لا يرفضون العمل السياسى الذى يضمن انسحاب القوات الاسرائيلية المعتدية بسلام ودون اراقة دماء . وكل تأخير فى هذا الانسحاب يدعم العدوان ويمنحه صفة الأمر الواقع ، ويؤدى الى انفجار الأزمة بما قد يعرض السلام العالمى للخطر نظرا للمنطقة الاستراتيجية الحساسة التى تقع فيها الأمة العربية بموقعها الجغرافى الفذ وثرواتها البترولية الهائلة .

أما التعريف بقضية اللاجئين الفلسطينيين فأمر لا يحتاج الى جدل ، فقد تضاعف عددهم بتتابع اقامة المستوطنات الاسرائيلية غير الشرعية ، ووقع عليهم من الاضطهاد ما يتنافى مع أبسط المبادىء الانسانية . لذلك فان عودتهم الى ديارهم من شأنه أن ينزع فتيل الانفجار من برميل البارود الكامن فى المنطقة . وهو الانفجار الذى ستدفع ثمنه اسرائيل اذا تجاهلت حقائق الوضع المتوتر فى الشرق الأوسط .

ومن ايجابيات الاعلام العربى الخارجى التعبير عن التقدير والعرفان لموقف الدول والشعوب التى أيدت قضايا العرب .

ولا يكفى أن يكون التقدير أدبيا معنويا فقط بل يتحتم أن يكون ماديا ملموسا أيضا ٠ فان التأييد المادى من شأنه كسب المزيد من قوة الدفع العالمى لقضايانا العادلة ٠

من هنـــا كانت ضرورة الالتحام بين الاعلام الداخلى والاعلام الخـــارجى فى الوطن العربى حتى تدرك كل دول العـــالم أن من مصلحتها حل مشكلة الشرق الأوسط على أساس عادل يجنب العالم خطر انفجار هذه المنطقة الحيوية والاستراتيجية ٠

الاقتصـاد قبـل السياسـة

لعـل أكبر آفة أصيبت بها أمتنا العربية تكمن فى غرامنا الملتهب بالمناورات السياسية التقليدية ، لكننا لا ندرك أن هـذا الأسلوب التقليدى القديم قد انتهى بانتهاء الحرب العالمية الأولى ، ولم تعد السياسة منذ ذلك الحين مجرد خطب عصماء أو شعارات جوفاء ، بل أصبحت علما متعدد الفروع والروافد . ولعل الاقتصاد هو أهم فرع من هذه الفروع لدرجة أن السياسة فى معظم دول العالم المتحضر أصبحت الى حد كبير فى خـدمة الاقتصاد بعد أن كانت السياسة هى الملكة التى ينحنى لها الجميع فى بلاطها . فلا شك أن الزعيم السياسى الذى يؤثر فى مجريات الأمور فى عالمنا المعاصر هو الزعيم الذى يقف بأقدامه ثابتة على أساس اقتصادى راسخ ، ثم تأتى فى المرتبة التالية لذلك السياسة الحكيمة التى يتبعها .

ولا يعنى هذا أن الاقتصاد والمال هما كل شىء فى السياسة، بل ان السياسة تعمل على ترشيد الاقتصاد وفتح الآفاق الجديدة له . لكن اذا اتخذت السـياسة من الاقتصاد مجرد أداة لتحقيق

طموحاتها وأحيانا شطحاتها فلابد أن الأساس الاقتصادى للأمة سينهار بمرور الوقت ، ومن ثم سينهار البناء السياسى بانهيار قاعـــدته ٠

وقد أدركت دول العالم المتحضر أن المستقبل يفتح ذراعيـه مرحبا بالكيانات الاقتصادية الضخمة ، ومن هنا نشأت فكرة انشاء السوق الأوروبية المشتركة عندما اجتمع لأول مرة فى يونيو ١٩٥٥ وزراء خارجيـة الدول الست الأعضاء فى السوق الأوروبية للفحم والصلب واتفقوا على العمل على تطوير الطاقة النووية وانشاء سوق اقتصادية مشتركة ٠ وبعد المفاوضات والأبحاث والدراسات وقعت الدول الست على « مواثيق روما » التى أنشأت السوق الاقتصادية الأوروبية المشتركة فى ٢٥ مارس ١٩٥٧ ٠ وفى النصف الأخير من عام ١٩٥٧ اعتمدت برلمانات الدول الست مواثيق روما ، وخرجت السوق الى حيز الوجود فى أول يوم من عام ١٩٥٨ ٠ وكانت مؤلفة من كل من فرنســا وايطاليا وبلجيكا وألمــانيا الاتحادية وهولندا ولوكسمبورج ٠ ولم تقف العداوات السياسية والحروب الدموية السابقة بين هذه الدول عقبة فى سبيل اقامة هذا النوع من الوحدة الاقتصادية التى تعود على الجميع بالفائدة المادية الملموسة ، وهى حروب منها القديم الذى استمر حوالى سبعين عاما ، ومنها الحديث الذى لم يمض على انتهائه أكثر من عشرة أعــوام عند التفكير فى انشاء السوق فى عام ١٩٥٥ ٠

وبدأ الوعى الاقتصــادى فى الانتشــار بين الدول الأخرى فانضمت بريطانيا وجمهورية ايرلندا والدانمارك الى السوق عــام ١٩٧٣ ، كما أن هنــاك أكثر من عشرين دولة مرتبطة بالســوق باتفاقات خاصة كاليونان ، والمغرب ، وتونس ، وتركيا ، وذلك للاســتفادة من أوجه نشاط الســوق التى تهـدف الى الازدهار الاقتصادى لجميع الأعضاء ، وتوطيد دعائم التوسع والاستقرار ،

والاسراع فى رفع مستوى المعيشة ، ودعم العلاقات بين الأعضاء عن طريق الوحدة الجمركية فى فترة انتقالية انهت فى يوليو ١٩٦٨ عندما ألغيت التعريفة الجمركية تماما ٠

وقد ساهمت السوق الأوروبية المشتركة بقسط وافر فى معالجة حالة البطالة وتوفير الوسائل لانتقال الأيدى العاملة بين الدول الأعضاء ، كما ساهمت أيضا فى برامج التدريب التكنولوجى واعادة التوطين ، وساعدت صغار المزارعين على توسيع مزارعهم مع توفير الرعاية للفلاحين الشيوخ تشجيعا لهم على الاعتزال ٠ وقد اعتمدت السوق فى هذا على الصندوق المشترك الذى أنشأته لايداع بعض احتياطيها ٠ ونظرا لنجاح هذا الصندوق فقد أوصى المجلس الوزارى للسوق باتخاذ خطوات أدت الى الوحدة النقدية بعد ذلك٠

لكن هذا الوعى الاقتصادى لم ينتشر بين الدول العربية للأسف ٠ فعلى الرغم من أنه لم تقع بينها الحروب الطويلة والدموية التى وقعت بين الدول الأوروبية ، وعلى الرغم من وحدة المصير واللغة والتاريخ والتقاليد والتراث ٠٠٠ الخ ، وهى الوحدة التى يحلو لنا أن نتغنى بها فقط ، فاننا لم نحاول حتى الآن أية محاولة جدية تسعى الى التكامل الاقتصادى بين دول الأمة العربية ٠

وعلى الرغم من الثروة النفطية والمادية التى يمتلكها العرب ، فانها طاقة تحت رحمة أسواق الأوراق المالية فى لندن ونيويورك وطوكيو وغيرها من عواصم الحضارة ٠ ومعظم الصناعات التى تقيمها الخبرة الأجنبية فى العالم العربى هى الصناعات الاستهلاكية التى تنتهى قيمتها الاقتصادية بانتهاء استخدامها بحيث يستمر العرب فى اعتمادهم على الانتاج الأجنبى ٠

ومن الغريب أن يحدث ذلك برغم أن اللجنة السياسية فى جامعة الدول العربية اتخذت قرارا فى عام ١٩٥٦ جاء فيه :

« لما كانت الوحدة الاقتصادية من أهم الأهداف التى تسعى اليها جامعة الدول العربية ، فان اللجنة توصى بتأليف لجنة من الخبراء العرب تتولى اعداد مشروع كامل لهذه الوحدة والخطوات التى يجب أن تتبع من أجل تحقيقها » ٠

وبرغم اقرار المجلس الاقتصادى للمشروع فى يونيو ١٩٥٧، فقد مضت خمس سنوات أخرى (١٩٦٣) قبل أن يوقع ممثلو ست دول عليه هى : مصر وسوريا والعراق والأردن والكويت واليمن ٠ ويضمن الاتفاق حرية التنقل لعناصر الانتاج (رجال الأعمال ــ الأموال ــ حرية الاقامة ــ العمل) ٠ كما ينص الاتفاق على اخضاع الدول الأعضاء لمنطقة جمركية واحدة ، أى تتوحد فيها التعريفة والتشريع والاستيراد والتصدير والنقل والترانزيت ، كما ينطبق عليها نفس السياسة الاقتصادية المتعلقة بالزراعة والصناعة والتجارة الداخلية ، والمرتبطة أيضا بالنقدية والمالية ٠

وتنص المادة الثالثة من الاتفاق على انشاء جهاز دائم باسم « مجلس الوحدة الاقتصادية العربية » يضم ممثلا لكل من الأطراف المتعاقدة ويتخذ قراراته بأغلبية ثلثى الأعضاء ، ولم يغفل الاتفاق تأكيد « استقلال المجلس المالى والادارى » ، كما يشرف المجلس على انشاء منطقة عربية جمركية موحدة ، وتنسيق التجارة الخارجية ، والموافقة على المعاهدات الخارجية واتفاقات المدفوعات مع البلدان الأخرى ، وتنسيق التنمية الاقتصادية والازدهار الصناعى والزراعى ٠ وقد تعهدت الأطراف المتعاقدة بألا تصدر فى أراضيها أية قوانين أو أنظمة أو قرارات ادارية تتعارض فى أحكامها مع هذا الاتفاق أو ملاحقه ٠

وفى عام ١٩٦٤ أنشئت « السوق العربية المشتركة » بموجب القرار رقم (١٧) الصادر عن مجلس الوحدة الاقتصادية ٠ وقد أبدت بعض الدول العربية استعدادها للتوقيع على اتفاق السوق

المشتركة بشرط ألا يلزمها ذلك باتفاق الوحدة · والسر وراء هذا الموقف هو اغفال اتفاق السوق لأمر دمج السياسات الاقتصادية والمالية للدول الأعضاء ، وخلوه من برنامج لاقامة التعريفة الخارجية الموحدة · واذا كان بعض المحللين الاقتصاديين فى ذلك الوقت قد هاجم اتفاق السوق المشتركة لأنها لم تضع تعريفة خارجية موحدة ، فماذا يقولون الآن وقد فشلت السوق أيضا فى اقامة منطقة للتبادل الحر بين الدول الأعضاء ، كما أنها لم تحول حرية انتقال عناصر الانتاج الى واقع ملموس ؟!

نخرج من هذا بالقول بأن السر فى التمزق الذى يجتاح العالم العربى يكمن فى فشلنا فى اقامة القاعدة الاقتصادية المشتركة التى تعتمد على المصالح المشتركة والمتبادلة بحيث تعم الافادة والاستفادة الجميع · فنحن ما زلنا نفكر ونتصرف فى اطار التقسيم الاستعمارى الذى فرض على الأمة العربية وأحالها الى أشلاء متناثرة ، بحيث رسخ فى وجداننا أن التكامل الاقتصادى فيما بيننا من رابع المستحيلات · ولكى نملأ الفراغ الناتج عن غياب التكامل الاقتصادى خضنا الصراع السياسى فيما بيننا ·

وكان يجب علينا أن نأخذ درسا من صراعنا المزمن مع اسرائيل ، فلقد أدرك اليهود منذ فجر التاريخ الحضارى أن من يتحكم فى اقتصاد العالم يستطيع أن يمسك هذا العالم من عنقه · وقد نجحوا فى تطبيق هذه السياسة ، وعلى الرغم من كونهم أقلية ضئيلة فانهم استطاعوا أن يوجهوا السياسة العالمية لكى تتطابق مع أهدافهم الصهيونية فى اقامة دولة اسرائيل والعمل على توسيعها كلما حانت الفرصة ·

لكننا نظن فى العالم العربى أن الضجيج السياسى الصاخب كفيل بتغطية خمولنا الاقتصادى على الرغم من أننا نملك أعظم ثروة

نفطية فى العالم ، ذلك لأن الحضـــارة والقوة السياسية الفعالة ليست نفطا خاما يضخ لتشغيل آلات خارج أراضينا ، أو أرصدة فلكية فى البنـــوك تحت رحمـــة تقلبات الأسواق العالمية للأوراق المالية . ان القوة السياسية الفعالة تنهض على العمالة والانتاج بكل ما يحمله من دورة نشطة لرأس المـــال وحركة حيـــــة للاستيراد والتصدير . ويكفى أن نذكر أن اليابان لا تملك أية مواد خام ومع ذلك أصبحت من أغنى دول العـــالم . ولنـــــا أن نتخيل الوضـــع الحضـــارى المزدهر الذى يمكن أن يكون عليه العالم العربى اذا أضاف الى قوته النفطية والمالية قوة العمالة والانتاج .

ولقد دق جرس الانذار أخيرا ونرجو أن تكون أمتنا العربية قد سمعته أخيرا . ففى الجامعات ومعامل الأبحاث النووية فى كل من أمريكا وبريطانيا أعلن العلماء أنهم توصلوا أخيرا الى الخطوة الأولى لاستخدام الطاقة النووية فى الأغراض التجارية ، وهذا يمثل بداية استخدام بدائل أخرى للطاقة . ويتحتم علينا أن نستفيد من هـــذا الانذار المبكر ، ونعى جيدا أننا اذا أردنا أن نصبح قوة سياسية ذات وزن دائم فى عالم اليوم ، فيجب علينا أولا أن نستغل طاقاتنا وامكاناتنا الاقتصادية المعطلة والمجمدة ، وأن نحيل ثروتنا المالية الى طاقة اقتصادية فعالة . وهذا لن يتأتى الا من خلال المصـــالح المتبادلة والمشتركة بحيث يتحول كل العرب – دون استثناء – الى مفيدين ومستفيدين .

ويمكننا عندئذ أن نختلف ما شاء لنا الاختلاف على المســـتوى السياسى ، لكن عندما يصـــل الأمر ليمس المصالح الاقتصـــادية المتبادلة فسنتوقف عن الصراع من تلقاء أنفسنا لأن هذه المصالح المتبادلة تشكل القاعدة المادية الملموسة للصـــالح العربى العام ، ويكفى أن نعرف أن السوق الأوروبية المشتركة قد أكسبت أوروبا كلهـــا مناعة ضد كل الصراعات ومن ثم أصبحت الســـوق تشكل

صمام أمن حقيقي استطاع أن يقضي على شبح الحروب التي نهشت القارة على مدى أجيال وقرون ٠ فكيف سيكون حال العالم العربى الذى لم يعرف مثل هـذه الحروب اذا ما وضـع مشروع السوق العربية المشتركة موضع التنفيذ ؟ لا شك أن هذه السوق ستصبح تجسيدا ماديا ملموسا للتجانس التاريخى والمعنوى والأدبى الذى يتمتع به العالم العربي منذ عصور الحضارة العربية المزدهرة ٠٠

الفصل الحادى عشر

قضية العــروبة في مصر

ان أى باحث يتصدى لدراسة قضايا العروبة دراسة موضوعية شاملة سيكتشف أن مصر تحتل مكان الصدارة فى كل قضية من هذه القضايا المتعددة ٠ وهذه المكانة الأثيرة لمصر فى قلب العـــالم العربى لم تكن مجرد صـــدفة بل كانت نتيجة تفاعلات تاريخيــة وجغرافية وحضـــارية وثقافيـــة وسياسية ، ومحصلة التزامات ومسئوليات ترتفع الى المستوى القدرى الذى لايقبـــل أى جدل أو سفسطة ٠ ومن هنا كانت مسألة طرح عروبة مصر على بساط البحث ما بين مؤيد ومعارض من قبيل الدوران فى حلقات مفرغة ، والدخول بالمسيرة العربية فى طرق مسدودة ومتاهات جانبية ٠

ويكفى أن نلقى بنظرة سريعة على مصر والعالم العربى ابتداء من منتصف هذا القـــرن وحتى الآن ، وهى فترة وجيزة فى عمــر الشعوب ٠ وبالرغم من ضآلة المساحة الزمنية ، فان مصر استطاعت أن تعمقها بقيادتها القومية بحيث أثارت من القضايا وأضافت من الانجازات ما يمكن أن يغطى أجيـالا عديدة ٠ فلا أحـــد يستطيع انكار دور مصر فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وذلك على الرغم من

السلبيات التي اعتورت هذا الدور · ذلك أن هذه السلبيات تحولت الى ايجابيات قومية تاريخية عندما تفجرت ثورة يوليو ١٩٥٢ · كذلك سجل التاريخ المعاصر دور مصر في اســتقلال الســودان وليبيا ، ثم في تحرير المشرق العربي ، ورفض سياسة الأحلاف ، وكسر احتكار السلاح · ولم يكن العــدوان الثـلاثي على مصر عام ١٩٥٦ سوى نتيجة مباشرة لدور مصر في تحرير المغرب العربي ، ورغبة القوى الامبرياليــة في ذلك الوقت في القضـــاء على هذه الطليعة القومية التي برزت في مصر وأشعلت نار الكفاح والتحرير بطول الوطن العربي وعرضه · كذلك لم تتوان مصر عن دعم الثورة في كل من اليمن الشمالي واليمن الجنوبي ، وعن الدفاع عن قضايا الخليج العربي السياسية والاقتصادية · وكانت مصر السند الأكبر للبنان في أزمته عام ١٩٥٨ ، كما اعتبرت أي اعتـــداء على العراق اعتداء عليها عند قيام ثورته في عام ١٩٥٨ ·

أما بالنسبة للعمل العربي المشترك فكانت مصر رائـدة في تطوير فكرة القومية العربية على أساس نظري وعملي ابتداء من انشاء الجامعة العربية والمنظمات العربيـــة المتخصصـــة ، ومرورا بتجربة الوحدة بين مصر وسوريا في عام ١٩٥٨ ، واتفاق الوحدة الثلاثية عام ١٩٦٣ ، واتحاد الجمهوريات الثلاثيـــة عام ١٩٧١ ، ثم حرب أكتوبر التي قادتها مصر في عام ١٩٧٣ والتي جعلت من تجربة العمل العربي المشترك حقيقة راسخة لمسها العــالم كله ، لدرجة أن العالم العربي أصبح القوة السادسة في العالم في أعقاب تلك الحرب ، وإن كانت هذه المكانة قد تراجعت الى الخلف ثم تلاشت في أعقاب حرب الخليج ·

وكانت مصر في منتهى اليقظة لكل المراحل التي تفرق فيها شـــمل العرب ، ذلك أن ثقلها القــومي والحضـــاري والتاريخي والجغرافي كان يشـــكل منطقـة الجذب لكل العرب مهما تعـــددت

اتجاهاتهم السياسية وتناقضت ميولهم الاجتماعية · يتضح هذا تماما في دور مصر القيادي في عقد مؤتمرات القمة العربية التي حددت معالم المسيرة العربية بين عامى ١٩٦٤ و ١٩٧٤ ·

ولم يقتصر دور مصر على تحرير الأمة العربية عسكريا وسياسيا ، بل امتد ليشمل المجال الاقتصادى أيضا · فقد ضربت مصر المثل الرائد فى تحرير الاقتصاد القومى عندما قامت بتأميم شركة قناة السويس ، وواجهت بمنتهى العزم والشجاعة القوى الامبريالية التي كانت تتحكم فى العالم آنذاك وعندما عجزت دول العدوان الثلاثي عن فرض سيطرتها على مصر واضطرت الى الانسحاب في أقل من شهرين ، أدرك العرب أن تحرير اقتصادهم من السيطرة الأجنبية لم يعد من رابع المستحيلات · ومن ثم بدأت بالتدريج محاولات احكام السيادة العربية على الموارد النفطية حتى اندلعت حرب أكتوبر ١٩٧٣ وتضاعفت أسعار النفط بحيث أصبح العرب قوة اقتصادية تضعها القوى الكبرى دائما فى حسبانها · وبالاضافة الى هذه القوة الاقتصادية المتزايدة فان مصر لم تبخل على شقيقاتها العربيات بامدادها برأس المال البشرى المصرى الذى يدفع عجلة التنمية فى الدول العربية من خلال العلماء والعمال والمهنيين والخبراء فى كل المجالات ·

واذا تعرضنا لدراسة دور مصر فى ابراز الشخصية العربية وبلورتها ، سنجد أن هذا الدور يتحدد فى العصر الحديث ابتداء من ثورة يوليو ١٩٥٢ وبداية مقاومة الأحلاف العسكرية التى كانت تسعى الى تمزيق جسد الأمة العربية ، وادخالها فى محاور مضادة لمصالحها القومية · ومن هنا خاضت مصر ـ ومعها الأمة العربية كلها ـ مجالات ارساء وتطوير حركة عدم الانحياز التى ولدت فى عام ١٩٥٥ على يدى كل من مصر والهند ويوغوسلافيا · كما كانت مصر رائدة فى الدفاع عن حقوق الانسان العربى حيثما كان ·

أما عن دور مصر فى المواجهة العربية الاسرائيلية ، فقد سجل التاريخ الحديث أنها تحملت العبء الأساسى ابتداء من حرب فلسطين ١٩٤٨ والنتائج الخطيرة التى ترتبت عليها ، وما زال العالم العربى يعانى منها حتى الآن · فمنذ مأساة فلسطين ، لم تتوان مصر عن ابراز عناصر الخطر الكامنة فى أهداف اسرائيل الاستراتيجية ، والعمل من أجل القضاء على هذا الخطر الذى يتهدد الأمة العربية كلها · من هنا كانت محاولات مصر لدعم التنسيق السياسى والاقتصادى بين الدول العربية ، وسد كل الثغرات التى يمكن أن تنفذ اسرائيل من خلالها ، وتصفية النفوذ الاستعمارى فى المنطقة العربية لارتباطه العضوى باسرائيل ·

ولم تتخل مصر عن كل مسئولياتها القومية العربية بالرغم من أنها دفعت الثمن غاليا فى كل مرة · فقد توالت عليها المحاولات الخارجية لاضعاف دورها القيادى فى المنطقة ، وبلغت هذه المحاولات قمتها فى ضرب مصر عسكريا كما حدث فى العدوان الثلاثى ١٩٥٦ والعدوان الاسرائيلى ١٩٦٧ · بل ان مصر فى نفس عام ١٩٦٧ أعلنت فى مؤتمر القمة العربى فى الخرطوم استمرارها فى الوفاء بالتزاماتها القومية وتعهداتها العربية على الرغم من قواها التى استنزفت فى أعقاب حرب ١٩٦٧ · ومع كل هذه السلبيات والاحباطات استطاعت مصر أن تضرب ضربتها فى أكتوبر ١٩٧٣ بحيث وضعت المواجهة العربية الاسرائيلية وآثارها فى ضوء جديد تماما ، رجحت فيه كفة العرب فى الصراع لأول مرة منذ عام ١٩٤٨· يكفى أن مصر قضت على أسس نظرية الأمن الاسرائيلى التى كانت تربط دائما بين الأمن وبين المزيد من الاستيلاء على الأرض العربية · كذلك استطاعت مصر أن تغير الموقف الدولى من الصراع العربى الاسرائيلى بعد أن كان منحازا تماما الى اسرائيل ·

ولم يجد الشعب العربى — من المحيط الى الخليج — أية غضاضة فى الايمان بقيادة مصر وريادتها ، لأنه أدرك بوعيه القومى

ان هذه القيادة ليست نتيجة لرغبة مصر فى فرض زعامتها ، بل أملتها حتمية وضع مصر الجيوبولوتيكى والحضـــارى والتاريخى والبشرى • ولذلك كانت قيادة مصر للأمة العربية نوعا من الزمالة والصداقة والألفة والسير على الدرب نفسه • والدليل على ذلك أن الخلافات التى وقعت فى بعض المراحـــل بين مصر وبعض الأنظمة العربية ، لم تؤثر بالسلب على دور مصر أو التزاماتهـــا القومية ، بل كانت هذه الخلافات مرحلية وتمت تسويتها فى اطار التضامن العربى والمصلحة العربية العليا •

ومع ذلك فقد أصيب العـــالم العربى بآفة خطيرة قل أن نجد نظيرا لها فى بلاد العالم المتحضر • هذه الآفة تتمثل فى الاصرار على الجـدل العقيم حـول البدهيات والمسلمات مما يجعل الأمة العربيـــة تدور فى حلقة مفرغة فى وقت ينطلق فيه العالم المتحضر الى آفاق جديدة يوما بعد يوم • ولعل أبرز دليل على هذه الآفة يتجسد فى طرح عروبة مصر على بســـاط البحث بين مؤيد ومعارض من حين لآخر ، وسرعان ما يخوض المؤيدون أو المعارضـــون غمار المعركة الوهمية ـ سواء فى مصر أو فى العالم العربى ـ وهم يتصـــورون أنفسهم أبطال أو شهداء معركة المصير •

لكن للمؤيدين العذر كل العذر فى خـوض المعـــركة حتى لايخلو الميدان للمعارضين الذين يفكرون ويتحركون ســواء بدافع الجهل بالتاريخ الحضـــارى والثقافى والروحى للأمة العربيـــة أو لغرض فى نفس يعقوب يجعلهم يرون فى المد العـــربى تهديدا لمصالحهم المادية ومكاسبهم المرحلية • وكانت هنـــاك عدة عوامل افتعلها المعارضون لعروبة مصر أو تستروا خلفهـــا لفصل القلب المصرى عن الجسد العربى ، من هذه العوامل افتعال تعارض بين مفهوم القومية العربية وفكرة التضامن الاسلامى ، وتحويل الوطنية المصرية الى قومية انعزاليـــة ترتبط أساســـا بالتراث الفرعونى ،

ومحاولة ربط مصر بالثقافة الغربيــة ممثلة فى منطقــة حوض البحر المتوسط بصفة خاصة وأوروبا بصفة عامة ، وتوجيه الحركة الوطنية المصرية الى الجنوب لتحقيق وحدة وادى النيل وكأن هذه الوحدة تتعارض مع الوحــدة العربية الشــاملة وليست لبنة من لبناتها ٠٠ الى آخــر هذه العوامل التى حاولــت اعاقة نمو فكرة القومية العربية فى المنــاخ المصرى الوطنى ٠ ومع ذلك لم تستطع هذه العوامل ـ منفردة أو متجمعة ـ أن تطمس الجوهر العــربى الأصــــيل لمصر ٠ ويكفى أن مصر كانـت الحمى لكل المفكرين والسياسيين والقادة والزعماء الذين لجأوا اليها من كل أنحاء العالم العربى هربا من بطش قوات الاستعمار ، واســتعدادا لاستئناف الجهاد من جديد ٠

وكانت هذه المسئولية القومية العربية الملقاة على عاتق مصر نتيجة طبيعية لوضعها المتميز تاريخيا وحضاريا وسياسيا وثقافيــا وفكريا وعسكريا واستراتيجيا ، ذلك الوضــع الذى جعل عــلاقة مصر بالعالم العربى من نوعية تختلف عن علاقة أى جزء قطرى بالكل العربى ٠ وهذا ليس من باب التباهى والتفاخــر والحماس القبلى على طريقة شعراء الجاهلية ، بل من باب المسئوليــة التاريخيــة والتكليف الحضارى ٠ فلم تدخر مصر وســعا من أجل تحرير الأمة العربية ، وتدعيم العمل العربى المشترك ، وتحرير الاقتصاد العربى ، ونشر الثقافة العربيــة ، وبلورة الشخصية العربيـــة ، وقيادة الأمة العربية فى الحرب والسلم على حد سواء ٠ ولم يجد الشعب العربى ـ من المحيط الى الخليج ـ أية غضاضة فى الايمان بقيادة مصر وريادتها ، لأنه أدرك بوعيــه القومى ان هذه القيــادة ليست نتيجة لرغبة مصر فى فرض زعامتها ، بل أملتها حتمية وضع مصر الجيوبولوتيكى والحضــارى والتاريخى والبشرى ٠ ولذلك كانت قيادة مصر للأمة العربية نوعا من الزمالة والصداقة والألفــة والسير على الدرب نفســه ٠ والدليل على ذلك أن الخلافات التى

وقعت في بعض المراحل بين مصر وبعض الأنظمة العربية ، لم تؤثر بالسلب على دور مصر أو التزاماتها القومية ، بل كانت هذه الخلافات مرحلية وتمت تسويتها فى اطار التضامن العربى والمصلحة العربية العليا ، ذلك كما سبق أن اكدنا على هذا التوجه ٠

ونظرة سريعة على التاريخ العربى الحديث توضح لنا أن الأمة العربية وجدت فى مصر السند الأكبر عندما خاضت معارك التحرر من استعمار الاحتلال ، ثم من استعمار الاستغلال ، وعندما وقفت في وجه محاولات الغزو العسكرى والثقافى والفكرى من أجل الحفاظ على هويتها المستقلة وشخصيتها القومية وسط التيارات التى تهب على منطقتها الاستراتيجية سواء من الشرق أو الغرب ٠ وعندما كان يتم تحرير أى جزء من الوطن العربى كانت مصر تسارع ــ كعادتها دائما ــ فى مده بالخبرة العلمية والمعونة الفنية والمساعدة العملية حتى يعيد بناء نفسه بأسرع ما يكون ، متخلصا بالطبع من كل رواسب الماضى وآلامه واحباطاته ٠

وكان لابد للفكر القومى العربى فى مصر أن يواكب مسيرة هذه الريادة المتجددة والقيادة المتعددة الأبعاد والمستويات ٠ ومن هنا كان الكم الهائل من الدراسات القومية العربية التى كتبها المفكرون المصريون منذ رفاعة رافع الطهطاوى حتى الآن ٠ فعلى المستوى الحضارى والثقافى والفكرى تبرز انجازات رفاعة رافع الطهطاوى ، ومكرم عبيد ، وتوفيق الحكيم ، وزكى نجيب محمود ، وحسين مؤنس ، وحسين نصار ، وفؤاد زكريا ، وابراهيم جمعه وغيرهم ٠ فقد قدموا دراسات مستفيضة ، وأبحاثا شاملة تحلل مقومات العروبة حضاريا وثقافيا وفكريا ٠ وان كان بعضهم قد هوجم على أساس مواقفه السلبية من فكرة العروبة ومستقبلها فى مصر ــ مثل توفيق الحكيم ــ فقد كانت المحصلة النهائية للحوار أن العروبة قدر كل العرب وفى مقدمتهم مصر ، وأى حوار حول العروبة

لابد أن يكون فى صالحها فى نهــاية الأمر مهما بدا معاديا لها على المستوى الظاهرى ·

أما على مســـتوى الســـياسة العربية المعاصرة فتبرز كتابات وأبحاث أحمد بهاء الدين ، وأحمد سويلم العمرى ، وجمال حمدان، وسليمان الطحاوى ، والسيد يسين ، ومحمد طه بدوى ، ومحمد عبد الله العربى ، ومحمد عطا وغيرهم · فقد التزموا جميعا بالمنهج العلمى فى بلورة ملامح السياسة العربية المعاصرة وسط تيارات السياسة العالمية المتلاطمة ، مع الحفــاظ على الشخصية العربية الأصيلة وتمكينها من مجاراة ايقاع العصر دون أن تفقد اتجاهها القومى · ولعل أحد الأسباب الكامنة وراء المآسى التى يقاسى منها عالمنا العربى المعاصر أن هذه الدراسات التحليلية والأبحاث العلمية ظلت فى معظمها رهينـــة الكتب والمجلدات ، ولم تخرج الى حيز التنفيذ بحيث تجنب السياسة العربية الدوران فى حلقاتها المفرغة والميتـــة ·

وعلى مستوى الدراسات الاقتصـــادية العربية ،قدم محمـــد صبحى عبد الحكيم ، ومحمد محمود الصياد ، وراشد البراوى ، ويوسف أبو الحجاج وغيرهم أبحاثا شاملة تعـــالج الاستراتيجية الاقتصادية العامة التى يتحتم على العالم العربى تطبيقها ، وألقوا الأضواء الكاشفة على العقبات التى تحول دون التكامل الاقتصادى العربى ، وعلى السلبيات التى تجعل الاقتصاد العربى رهين تقلبات الاقتصـــاد العـــالمى الذى يدور فى فلكه طالما أنه لم يصنع الفلك الخاص به ·

أما على مستوى الدراسات التاريخية ــ سواء تلك التى تحلل ماضى العرب أو التى تعالج واقعهم الراهن كامتداد حى لذلك الماضى ــ فنجد أعمـــال وكتابات أحمد عـــزت عبد الكريم ، وأمين سعيد ،

ومحمود كامل ، وعلى حسنى الخربوطلى ، ووحيد رأفت وغيرهم ٠ فقد كان التاريخ العربى بين أيديهم مادة حية تنبض بها جماهير الأمة العربية من الخليج الى المحيط ٠ وقد جنبهم منهج التحليل العلمى الهادىء البكاء على أمجاد الماضى والتغنى بها ، بل اعتبروا دراسة تاريخ الأمة العربية نافذة يطلون منها على مستقبل العروبة سواء فى مصر أو فى العالم العربى ٠ وهذا المستقبل رهن بالمسار الذى سيسلكه العرب ، اذ أنه مادة خام قابلة للصياغة والخضوع تماما لارادة الانسان العربى اذا أراد التخلص من كل السلبيات التى تعوق المسيرة ، وتدعيم الايجابيات الكامنة بالفعل ٠

وعلى مستوى التربية والتعليم نجد دراسات وأبحاث اسماعيل القبانى،وأبوالفتوح رضوان،ومحمد على حافظ التى تربط بين مستقبل العروبة والأسلوب الذى يتم به اعداد الشباب العربى لتحمل تبعات هذا المستقبل ٠ فالشباب هو المستقبل ولابد أن تتاح كل امكانات تربيته علميا وروحيا وثقافيا وفكريا وسياسيا وحضاريا واقتصاديا حتى يمتلك الوعى القومى الناضج الذى يؤكد له أن مستقبله من مستقبل أمته ، وحتى لا تبهره أضواء الحضارة العالمية المعاصرة التى يمكن أن تجرفه فى تيارات متناقضة تفقده الثقة فى نفسه وفى أمته ٠

وليس معنى تحديد انجازات هؤلاء الرواد بهذا الأسلوب أنهم وقعوا فى براثن التخصص الضيق الأفق ، ذلك أن العناصر المكونة للنسيج الحضارى والقومى متداخلة ومتفاعلة بحيث يستحيل فصلها عن بعضها بعضا ٠ ينطبق هذا على السياسة كما ينطبق تماما على الثقافة والتعليم والاقتصاد والتاريخ والفكر ٠ ولذلك كانت تخصصات هؤلاء الرواد بمثابة قواعد انطلاق لهم الى المجالات الأخرى المرتبطة عضويا بتخصصاتهم بحيث يستحيل تحليل انجازاتهم وامكاناتهم بدون استيعاب انجازات الآخرين وامكاناتهم مهما تعددت وتنوعت وتفرعت ٠ فالجميع فى نهاية الأمر يعزفون

سيمفونية العروبة ٠ قد تكون بعض الأنغام متعارضة ، وبعض الأصـوات متضادة لكن العروبة كمفهوم وعقيـدة وحضارة وحياة قادرة على الوصول الى التناغم والتناسق اذا ما قرر أبناؤها المضى فى هذا السبيل باصرار واخلاص ٠

ان المجال لا يسمح بالقيام بعملية مسح شامل وحصر كامل لعصارة فكر كل من خاض هذا المجال القومى الخطير بكل عناصره وأبعاده ومسـتوياته ٠ يكفى أن نذكر أسماء أخرى — على سبيل المثال لا الحصر أيضا — مثل شفيق غربال ، وفكرى أباظة ، وفؤاد أباظة ، ومحمد على علوبة ، وأحمد فؤاد الأهوانى ، وعبد العزيز الأهوانى ، وجلال مظهر ، وزكى مبارك ، وابراهيم أنيس ، ومحمد أنيس ، وجلال يحيى ، وعز الدين فوده ، وحامد ربيع ، وعبد العظيم رمضان ، ومحمد خلف الله أحمد ، وصلاح العقاد ، ويوسف خليل يوسف وغيرهم ممن أخصبوا الفكر العربى القومى المعاصر سواء بكتاباتهم ، أو بمقالاتهم ، أو بمواقفهم السياسية فى المحافل القومية والعـالمية ، أو بمحاضراتهم لطلبتهم فى المعـاهد والجامعات ، أو بأحاديثهم وندواتهم من خلال أجهزة الاعلام ٠

والشىء المثير للدهشة أننا اذا قارنا كم الانتاج المصرى فى مجال الدراسات القومية العربية ، بكم الانتاج العربى فى المجال نفسه على مستوى الأمة العربية كلها ، سنكتشف أنه مرتبط بنفس نسبة تعداد سكان مصر لتعداد سكان الوطن العربى ، أى أنه أكثر من الثلث ٠ واذا دل هذا على شىء فانه يدل على أن ثقل مصر البشرى والسياسى والعسكرى يقابل بل ويعادل نفس ثقلها الفكرى والثقافى والحضارى ، وأن هذا الكم يعادل كيفا فى حجمه وأبعاده ٠ واذا كنا نقول على سبيل المجاز أن مصر هى قلب الأمة العربية ، فانه يمكننا القول من الناحية العلمية والعملية أن مصر تشكل — على أقل تقدير — ثلث العقل العربى ، بل والثلث المتسق المتماسك الراسخ ، ذلك أن الثلثين الباقيين موزعان على أجزاء قطرية متعددة،

ومتناثران بين وحدات منفصلة عن بعضها بعضا كبلاد مستقلة وان كانت العروبة تجمع بينهما وجدانيا وثقافيا وفكريا وروحيا ٠

ومما يؤكد دور مصر الريادى فى تكوين العقل العربى الحديث أنه حتى قادة الفكر المصريين الذين رفضوا العروبة أو تجاهلوها من أمثال سعد زغلول وأحمد لطفى السيد وطه حسين ، لم ترفضهم الأمة العربية بل استلهمت كفاحهم وفكرهم وأصبحت أفكارهم ومواقفهم جزءا من نسيج الفكر العربى المعاصر ٠ فاذا كان سعد زغلول قد وجد فى تجمع العرب ووحدتهم مزيدا من الضعف الجديد الذى يضاف الى الضعف القديم ، فان كفاحه ضد الاستعمار البريطانى فى مصر قد أشعل جذوة التحرير القومى فى كل أنحاء الأمة العربية ٠

واذا كان أحمد لطفى السيد قد أكد على رفض المصريين الانتماء الى وطن غير مصر ، اذ أن اقرار المصرى بانتسابه الى العروبة لا يدل الا على أنه يحتقر وطنه وقومه ، وأن الاتحاد العربى مجرد وهم ، فان كتابات لطفى السيد فى الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع قد ساهمت الى حد بعيد فى حركة التنوير العربى المعاصر ٠ أما طه حسين فعلى الرغم من ايمانه بانتماء مصر الى حضارة البحر الأبيض المتوسط بنفس الدرجة التى تنعزل فيها عن الوطن العربى ، فان أحدا فى الوطن العربى لا ينكر أفضاله على اللغة القومية والأدب الحديث والثقافة المعاصرة فى كل أنحاء العالم العربى ٠

كل هذا يعنى أن عروبة مصر من الأمور الراسخة والمصيرية والمستقبلية التى يصبح الجدل حولها نوعا من السفسطة الفارغة والمعوقة للتقدم الفعلى سواء لمصر أو للأمة العربية ٠ ولعل المشكلة الأساسية التى يعانى منها العالم العربى بصفة عامة أن الفكر القومى

أصبح تابعا للسياسة بكل متناقضاتها وتقلباتها وصراعاتها ، ومن ثم فقد دوره كبوصلة تحدد اتجاه المسيرة العربية وملامح المستقبل العربى • ولذلك فان الدهشـة سرعان ما تزول عنـد اطلاعنا على الفكر القومي العربى المتسق والذى لا يختلف حوله عربى واحد ، وذلك فى مواجهة السياسات العربية المتناقضـة والمشتتة • فقد تحولت السياسة العربية الى فكر ارتجالى عفوى يختلف من يوم لآخر ، بل ويتناقض مع نفسه دون أن يشعر أو يخجل من هـذا التناقض • ولذلك توارت العروبة بمفهومها القومى الحضـارى الثقافى الفكرى الأصيل ، ولم ينعزل العالم العربى عن مصر فحسب، بل انعزل كل قطر عن الآخر الى درجة بلغت حد القطيعة والصدام المسلح • ولأول مرة فى التـاريخ العربى الحديث بات مستقبل العروبة مهددا بالفعل ، ولن ينقذه سوى عودة الأقطار العربية الى الانتظام فى الكيان القومى الذى تشكل مصر مركز الثقل والتوازن فيه • وأية محاولة لعزل مصر عن الأمة العربية ، سواء كانت من داخلها أو خارجها ، لن تعنى سـوى فقدان الوطن العربى لثقله الحضارى وتوازنه السياسى • واذا كنا نؤكد على أن مستقبل مصر فى عروبتها ، فاننـا نصر بنفس القـدر على أن مستقبل العروبة فى مصر •

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٨/٧٩١٣

ISBN — 977 — 01 — 5699 — X